رواية

زيد الشهيد

الليلُ في بَهائِه

أمل الجديدة
طباعة - نشر - توزيع

اللَيلُ في بَهائِه

اسم الكتاب: الليلُ في بَهائِه
المؤلف: زيد الشهيد
الطبعة الاولى: ٢٠١٩
تصميم الغلاف والإخراج الفني: دار أمل الجديدة
ISBN: 978-9933-603-68-7

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٩) لسنة ٢٠١٩

دمشق- بيروت
جوال ٠٠٩٦٣٩٣٢٤٧٢٠٩٦-٠٠٩٦٣٩٣٢٠٠٢١٢٦-
هاتف: ٠٠٩٦٣١١٢٧٢٤٢٩٢
E-mail:ammarkordia@yahoo.com

حقوق الطبع محفوظة: لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين مادته بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت (الكترونية) أو (ميكانيكية) أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو بخلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من المؤلف أو الناشر.

All rights reserved, Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, Electronics, mechanical photocopying, recording of otherwise, without prior permission in writing of the publisher

زيد الشهيد

الليلُ في بَهائِه

رواية

مُتَصَفِّحاً مَدارِجَ الهيولى
هذا الليلُ
يَنمُّ عَن حِكاياتٍ
تترى
ويَقولُ الآهْات.

❖

الليلُ مأدُبةُ الأحزانِ.

❖

تلك الأوجاعُ أقدامٌ ثقيلةٌ
تتبارى على اشجارِ الليل
ومن نوافذِه تَتَسلَّلُ الأفاعيَ
تجلسُ على مُتَّكآت الرَّملِ
تحتسي ضغائنَ البَشَرِ
فتَتَّملُ على ايقاعِ بغضِهم.

زيد

(١)

فَجر.. الكتابة

عُمرُ فَجر الآن خمسٌ وعشرون عاماً.

لَم يَعُد، كَما كانَ صغيراً لم يَتَعدَّ الرابعةَ من عُمرِه، يعبثُ بالكتبِ ويتسلّق الرفوفَ ظنّاً منه أنَّها لُعبةٌ مُسلّيةٌ عليه أنْ يُقلّدَ بها أباه مُشرِق حين يراه يَستلُّ كِتاباً من رفٍّ هنا، ويُعيدُ كتاباً لِرفٍّ هناك.

لم يعُد قَصداً في اللَعبِ يُقلِده في صُعودِه على السلَّم المُتحرك الصغير من أَجلِ سَحبِ كتابٍ في الرفِّ المجاورِ للسقفِ أو اعادةِ كتابٍ سَحبَه من نَفسِ الرفِّ القريبِ من السقف.

هو الآن بعمرِ الخامسة والعشرين.

يكتبُ المقالاتِ الفكريةَ المُشبَّعة بالفَلسفةِ، ويقدَّمها للنشرِ فتَجد قبولاً من لَدُن قُرّاءٍ يَرون أنفسَهم بحاجةٍ لها لأنَّها تَحملُ نَفَساً مُغايراً ومُختلِفاً عمَّا تعلَّموه في مراحلِهم الدراسية، وحتى في أعوام دراستِهم الجامعية. كذلك اختلافها عمّا يُنشر أو نُشر في مَجلاتٍ وصحفٍ على مرِّ أزمنةٍ انصرمت.

تكتَئِبُ عمَّتُه ريم لمشاهدتِه يشبه أباه / أخاها مُشرِق.

تخشى أنْ يتَّبع خُطى أبيه.

تقفُ عند النافذة التي كان أبوه ببجامتِه الزرقاء المُقلَّمة بخطوطٍ بيضٍ وتسريحةِ شعرِه الأسود الفاحم على الجانبِ الأيمن من وجهِه، ينظرُ من خلالِها بعينين تتأملان أو ترحلان بعيداً إلى عوالمَ افتراضيةٍ يأملُ يوماً استحالتها حَقيقةً ماثلة، وخلفه المنضدةُ الساجيَّةُ المُربعة التي صنعها له أمَهر نجّاري مدينة سامراء كانَ يدوّن على الوَرقِ الأبيض المُخطَّط المَصفوف أمامَه أفكارَه وآراءَه وتجاربَه، فتبعثُ نظراتِها المرتبكةَ إلى الأفقِ البعيد؛ إلى المَلويّة المنتصبة وهي غارقةٌ في سرابٍ لاهثٍ، مُترجرجٍ، ولاصِف.

تُرسي نظرَها الذي باتَ على أعتابِ الكَلَلِ والضَّعفِ والوهنِ وتثبِّتُه جاهدةً على قِمّة الملويّة فيخيل لها أنَّ فَجر بشبابه ورقَّته، بحذقِه ونباهتِه وذكائِه يقف في المكان الذي وقف فيه أبوه مُشرق قبل اربع وعشرين عاماً، ورمى بنفسِه من هُناك؛ مَأخوذاً بقرارٍ حَسِبَه المُخلُّص، وبقناعةٍ لا رجعة عنها.

تستديرُ بالجسدِ الذي غدا نَحيلاً، والقلبِ الفاتحِ أبوابُه للخفقِ الشديدِ والضَّغطِ العارمِ، فتترك الغُرفةَ وترتقي السلَّمَ متكئةً على درابزينه الخَشبي البُنّي اللامع صُعوداً إلى غرفته.

تجده هناك مُنكبّاً أمامَ شاشةِ اللابتوب يكتبُ بأحرف تتراصف فتكوِّن كلماتٍ، فجملاً، فموضوعاً.

تقفُ عند الباب قَصدَ دعوته للنزولِ وتناولِ فطورِه؛ فهو كأبيه اعتادَ الكتابة فَجراً قبل توجُّهِه للعمل.

خُصلةُ الشعر تهبطُ على جبينه وهو مُنهمكٌ أو سارحٌ في التدوين.

عَهدَته يستيقظ قبل بزوغِ الشمسِ بكثير.. يَذهب الى الحمّام الملاصق لغرفته.. هناك يفرِّش اسنانه ويغسل وجهه، ثم يعود يرتدي كاملَ ملابس الخروج للعمل، ثم يهبط ليجلسَ عند منضدةِ الطَّعامِ كطقسٍ يومي لا يحيد عنه.

لقد اعتاد قَضاءَ ما يزيد على الساعتين في التدوين قبل دعوتها لتناول الفطور.

وهي على غيمةِ الاكتئاب من مشاهدته يَسبحُ في نهرِ الكتابةِ والوعي، الذي تَحسبه يقودُه إلى الهلاكِ، كثيراً ما تساورُها فكرةُ انتهازِ فرصةِ خروجِه إلى العمل فتفتحُ جهازَ الكومبيوتر لتدخل على ما كَتب وانتهى منه وفكَّر بإرساله للنشر فتظلل الصفحات، وتضرب على زر "ديليت" لتقطع دابرَ مَسارٍ تعتبره ضلّيلاً، موقنةً بأنَّه سيُفضي به إلى ما أفضى إليه أبوه.

لكنّها تتراجع مُتصورةً ما سيحصل له من ألمٍ، وما يجري له من معاناةٍ لفعلتها.. تتخيلُ أيضاً المعاناة الكبرى حين يحاول اعادةَ ما كتبَه وانتهى منه، فيفشل فشلاً قاطِعاً وذريعاً. ذلك

أنَّ مِن الصّعوبة والعُسر بمكانٍ اعادةُ كتابةِ موضوعٍ كتبناه وأردنا استعادة كتابته. فما نعيدُ من كتابةٍ لنْ يكون اطلاقاً بقوةِ ورصانةِ الكتابةِ الأولى؛ تلك التي تفجَّرت خلالها الموهبةُ وبلَغت أقصى مراحلَ تأجُّجِها فسكبتها مَنحوتةً نَحتاً موفَّقاً.

تقلقُ حين يبرحُ البيتَ إلى عملِه مُستعيدةً قلقَ أمِّها، وخشيةَ أبيها على مُشرق. إذ كانا يتهجسان ما يمكن وقوعُه في خَطرٍ. فتبعاتُ ما كان يكتبُه كانت تتجسَّد بمضايقاتٍ صارت تَحصل له. وكثيراً ما تعرَّض لتهديدِ رئيس دائرتِه بنقلِه إلى الجنوب إنْ لم يكفَّ عمَّا يَكتُبُ أو ينشر.

يُعلِمه المدير أنْ ما ينشره يتسبَّب له كمديرٍ بمنغصاتٍ هو في غِنى عنها. فما أنْ ينشر موضوعاً حتى تَجري الاتصالات به من جِهاتٍ عليا لمطالبته بالتحدِّث معه وتحذيره، وثنيهِ عن الكتابةِ ونصحِه بعواقبَ جحيمِ الوعي الذي دخلَه، والذي لنْ يقودُه سوى إلى عَسَفٍ سيلاقيه، وعذابٍ يومي سيتعرَّضُ له.

تكتئبُ العمّة ريم؛ تكتئب...

وتقرِّرُ الانفجارَ في وجهِه يوماً، داعيةً إيّاه إلى تركِ الكِتابة والتخلّي عن النشرِ نَهائياً.

(٢)

مُشرِق

مِن حقِّها أنْ تهبَ الوقتَ له مِدراراً كمطرِ الشوق.. ومِن حقّه تلقّي ما تَشي روحُها من بوحٍ يلاقيه عند محطةِ الانتظار.

كانَ لها الشمسُ تتباهى بضوئِها ودفئِها وبهرجتِها؛ وكانت له الترتيلةُ المنغَّمةُ يترنَّم على موسيقاها وايقاعِها فيعيشُ في أملِ تَحقيقِ مُرادِه وانجازِ مَساعيه في طريقٍ اختطَّه بمَلءِ ارادتِه وهو يرى نهايتَه تُوصِلُ الى نجازةِ سعادةٍ تعمُّ الجميع.

تقول له والشوقُ يعجُّ في فضاء القلب: ولدي.. بكَ، وفيكَ أرى الحياةَ بُستانَ هناءٍ وسرورٍ يَغمرُ أيامي بالتَّمرِ اليانعِ والأشذاءِ العطِرة.

وكان يتأمَّل وجهَها بالملامح التي أغدَقت عليه طيلةَ سنوات نشوئِه ألقَ الوفاء والنظرَ الى العالم نظرةَ المتفائل، فيقول: أمّي؛ أيتها الخارجةُ من هالةِ الطيب، ومكامنَ الرِّقةِ، وحفاوةِ الاقبالِ على النقاء.. منكِ، ولكِ أخطو واضعاً قدميَ الواثقةَ من وثوقِ خُطاك وأنت تُعلِّميننا أنَّ الحبَّ سورةُ الاخلاصِ التي لابدَّ من حفظِها وحملِها شعاراً نسعى من أجلِ تحقيقِه كي تبزغ

نجمـةً سـاطعةً تـنظمُّ الى النِّجـومِ السـواطعِ والأهلّـةِ المُشـتعلةِ بالضياء الخالدِ الذي يضيءُ دربَ البشرية.

كانـت تبتسـمُ بوجهِـه فـتعمُّ الفرحـةُ نـدىً واخضـراراً تشـمل مَفـازاتِ روحِـه، وتعـدو البهجـةُ غَزالـةً قـافزةً نـافرةً علـى خَميلـةِ اللـذاذةِ تناغمـاً مـع حَفـاوةِ الفيـوض، تسـتقبلها لـتروي دواخلـها كـي يَذهبَ الظمأُ وترتوي العروق.

وكـانَ يُطلـقُ ضِـحكةَ البَهجـةِ لنشـوتِها وهـي تتأمَّلُـه طِفـلاً يَفردُ ذراعيه لتستقبله احتضاناً.

تثـبُّ "هـي" مُشـيعَةً في روحـه عبـقَ الأمومـة ونـدى خلـقِ الانشراح.. ويستقبل "هـو" مـن ريـاضِ قلبِهـا ورودَ الأشـذاء تفعمُـه بترنيمـةِ التهـادي العَـذب، وتطـويحِ الـرأس نشـوةً تتلوهـا نشـوةٌ؛ فنشوة.

وما نشوى الانسانِ إلا نجاحٌ في سعيهِ ووصولٌ لمبتغاه.

ومـا المبتغـى إلا سـعادةُ مشـاهدةِ الآخـرين يُنعمـون بفَيضِ مـا تمنّاه لهم.

*

وهو يكتبُ أولَ حَرفٍ من أبجديةِ الانطـلاق في مِضـمارِ نَهلِ المعرفةِ كانَ فناءُ البيت مَيداناً للقـراءاتِ الجَّهوريـة لأشـعارِ مَـن عاشـوا قبـلَ عشـراتِ الحُقَـب يسـتعذبون البـوحَ نثـراً لأرواحِهـم المُسـتهامةِ بحبيبـاتٍ عشـقوا ، وميـادينِ فروسـيةٍ دخلـوا.. بـأقوامٍ

فَخروا وتمجَّدوا فارتقوا إلى مصافي العلياء.

قراءاتٌ ترحل بعيداً أو تطوفُ قريباً، مُشكِّلة غذاءً روحياً يُطعم شرايينَ الروحِ بعسلٍ يتقاطر من كُتبٍ بلغاتٍ متنوعة، تُعبِّر عن مكنوناتِ نفوسٍ سكبَها المتميزون مِن الخلق البشري على صَفحاتِ الكتبِ فتشكَّلت أسطرَ تشُع، وكلماتٍ يفوحُ منها أريجٌ انساني يُفعِم مَن أحبَّ القراءةَ وحسبها الزَّيتَ في المَشكاة التي تنير له دربَ الحياة... يقرأُ عناوينَ مَقرونةً بأسماءِ خُلاّق رَفدوا البشريةَ بخرائطَ تُعلِمُهم بسكّة الخُلقِ القويم، مُشيرةً لمكامن تضئيلِ الجَّزع الناتج من التفكيرِ بمصيرِ وجدَ البشريُّ نفسَه تتقدّم لقَدَرِها المحتوم شاءَت أمْ أبت.

يومَها كان العالمُ يعيش التصارعَ والتضاد، التجاذبَ والتنافر، الاصطدامَ والارتداد، الإقدامَ والتراجع أو التراجعَ والإقدام في حَلبةٍ تتبارى على اديمِها الفئاتُ بتنوعاتِها ومشاربِها وارداتِها في مَدىً زمني يأخذُ من المُطلقِ حيزاً، وفي بُعدٍ مكاني يشملُ الأرضَ بما وسِعت، في حَربٍ أطلقوا عليها اصطلاحاً "الباردة".

فلكلِّ فئةٍ رأيٌّ في تَسييرِ الحياةِ وصناعةِ المُستقبَل.

ولكلِّ فكرةٍ أسُسٌ يراها مَن ابتكرها الأمثلَ والافضلَ في تحقيقِ مآل يقودُ الى هناءِ البشرية؛ إذ الهناءُ مفردةٌ يتجذَّر في

صيرورتِها مُصطَلَح يُعرَّف بأنَّه المَسلكُ القويمُ الذي بانتهائه يدرك الانسانُ عتبةَ الخلود وقد تجاوزَ عَسَفاً وجَوراً، مِحناً وآلاماً، صراعات وتناحرات، تعثرات وتهالكات حتى أدرك أنّ حثيثَ التأملِ والتفكيرِ بالمآل أوصلَ الى حقيقةِ النَّهلِ مِن مِتعِ الحياة، والسَّيرِ تناغماً على ايقاعِ قَطفِ السعادة. فليس غيرُ الفَناء خاتمةً لكلِّ شيءٍ انبثقَ وبرزَ على ثرى الزمن.

فَناءٌ ينتهي ارتقاؤه الى حَقيقةِ أنْ لا شيءَ دائمٌ، بل كلُّ شيءٍ إلى زوال.

*

ابهجتها الحياةُ بولدٍ كان فَحوى أيقونةِ الجَّمال، وأبجديةٍ مُثلى في لغةِ فَهمِ الما حَول من شواخصَ لا مرئيةٍ تصبحُ، حين التراصف بفعلِ الأفكارِ، مَرئيةً ظاهرةً. تُشكِّلُها اللغةُ وتجعلها قابلةً للتعامل والتساجل، ثم الفهمِ في نهايةِ المطاف.

كان لها الولدُ الذي تسعدُ وتبتهجُ لمرآه.

كانت تحبُّ الاشراق بوصفِه فاتحةً لنهارٍ مُضاء، فسمّته "مُشرق".. كان لها السعادةُ مُجسَّدة في رَفَلٍ مُنَغِّمٍ.. فَراشةٌ جميلةٌ لا تتغذّى الّا على رَحيقِ السِّحرِ والصَّفاء والنَّقاء. وهذا ما حلمت به يوماً مِن عَميم أحلامٍ كانت تتوالى فلا يرضيها واحداً إلا عندما مرَّ هوَ كالمَلاك في لحظةِ فَيضٍ خاطفٍ، فهتفت في ميدانِ ذلك الحلمِ هتافَ الدعوةِ الى التوقّف ورفعِ

السَّبابة اليه: هو ذا الأبن الذي أُريد، يا ربّي!.. هي ذي الأمنيةُ التي تَمنَّيتُها وانتظرتُها طَويلاً.

ومن جانبه كانَ هناك شعورٌ غامرٌ يساوره أنَّ له أمّاً أتت من مَصافي البهاءِ والنورِ القدسي لتضيءَ عُتمةً تملأ نفقَ الحياة ومدارَ الهيولي؛ لولاها لما أدركَ سرَّ رُقيّه في دربِ المطالعةِ الطويل وشَفرةِ طمأنينته في واقعِ أعوامٍ تتوالى تترى لتصنع شخصيةً تُقاس خطواتُها بسرِّ انجازاتِها وفعلِها.

إنَّه ذلكَ البيتُ، الكيانُ الصَّغيرُ، في الحَي المتواضع مِن مدينةٍ يُقال عَنها يومَ ولِد "بلدةً" بأحياءٍ مَحدودةٍ وحَسيرة؛ وثَمّةَ أناسٌ جُلُّ هَمِّهم العيشَ على ايقاع المُهادنة مع الأقدار، وتجنّب عاديات الزَّمن بما يستطيعوا من امكانيةٍ على قلَّتِها وضَعفِها.. بيتٌ كانت غرفُه الثلاث وباحتُه المكشوفةُ تطالعُ السماءَ وتحتفي بضوءِ النهار، وجيرانٌ يتبادلون التحيّاتِ بالمُصافحةِ وبالكلماتِ الرقيقةِ الباعثة على التواضعِ والطِّيب.. وكان دجلةُ على مَرمى نَظرٍ حين الاطلالةُ من الشرفةِ المُحدَّدة بدرابزين خشبي واسياخٍ حديدية تقشَّرَ فيها الطلاءُ الأبيض وبانَ الصدأ.

إنَّ لدجلةَ فعلُ التأثير المُهيمن على مَشاعر ذلك الصبي الذي يطالعُ من وسطِ الشُّرفة حركةَ الزوارق الشراعية، والنوارس؛ تلك التي تأتي شتاء زاعقةً بأصواتٍ غريبةٍ على السامعين فلا

هـي أصـواتُ زقزقـةٍ ولا نـواحُ فواخـتٍ. وكـان عبـورُ المـارّة علـى الجّسـر الحديـدي يُقـدِّم وجـوداً جَماليـاً علـى نهـرٍ دافـقٍ أغلـب اوقاتِ السنةِ مُضافاً لأهميته كواسطةِ عُبور.

لقد نَما على يناعـةِ تربـةٍ باهرةٍ مـن السُّمو، وفضـاءٍ حميمـي مُشمسٍ بضـوءِ الثقـةِ بـالنفس بـينَ أبٍّ يعتـزُّ بكيانِـه انسـاناً جـاء ليضعَ لبنةً تتراصفُ مع لَبنات برجِ الانسانيةِ الناحيَ الى الارتقـاء المعـرفي، وأمٍّ أرضـعته عـبيرَ الإقـدامِ والمباهـاةِ بـالرأي المُتجسِّـد بحبِّ الناس.

مِـن هُنـا تكـوَّنَ مَخلوقـاً يرتفـعُ في ميـاهِ روحِـه مسـتوى الكاريزما، فيرفلُ على ايقاعِ الاعتدادِ بما يطـرحُ مـن آراءٍ ومـا يُعلنُ مِن تصوّرات.

وجـدَ نفسَـه بعـد حـين ولّمـا يبلـغُ العشـرين في صـفِّ الشـباب العاشقين للقراءة والمصمّمين على النهلِ بـلا تـردَّد مـن نَميرِ مـاءِ المعرفـة، فكـان الصـوتُ المُشـع بسَـداد الآراء، وكـان الضـوءُ المجاهرُ بضرورةِ مَحوِ الجَّور والألم من فوقِ الارض.. يتوخّى بناءَ نظـامٍ انسـانيٍّ اجتمـاعيٍّ اقتصـادي تتكـافىء فيـه الفـرصُ ويتعـالى مَنسـوبُ الحريـةِ الفَرديـة.. تَّتحقَـقُ الواجبـاتُ وتتوجَّـبُ الحقوقُ. يمحو ذلك الجزعَ الذي عبَّر عنه المتنبي يوماً بعد مرارةٍ كانـت كالسـيلِ تجـرفُ آمالَـه وتطـيحُ بتطلعاتـه، وهـو يتمـتمُ حانقاً: "يا أمَّةً ضحِكت من جهلِها الأمم".

إنَّ الجهلَ لَعتَمٌ ، وإنَّ الضحكَ لابد أنْ يجيء جَرَّاء سعادةٍ تجسِّدُها هناءاتُ الانسانِ لا لتشفٍّ بسببِ نكوصٍ، وتقهقرٍ، وانكفاء.

يقول أمِّي، وهو يعني طريقي الذي أسير، نوري الذي يصاحبُني، قصيدتي التي أترنَّم، فخري الذي أُجاهِر.

يقول أُمّي وهو يشير إلى دعمٍ يتلقّاه مِنها بالكلماتِ، إلى نظراتٍ تحثُّه على الجري، إلى قبضةِ يدٍ ترسمُها كدعوةٍ إلى المواصلةِ والسيرِ مَلَكاً.

تذكّر أنّه جاءَها يوماً بكتابٍ سَميكٍ يحملُ غلافُه صورةَ رجلٍ ملتحٍ فأدركَت بسرٍّ حدسِها أنَّه يحمل كتاباً ذا أهمية، خصوصاً بعد انتباهِها اليه يصرفُ الساعات قابِعاً في غرفته يُطالعُ الصفحات وينقلُ بَعضاً من الأسطر الى كُرّاسٍ مفتوح.

يأنسُ للصمت الذي تتوخّى اشاعته داخلَ البيت كي يقرأ بتمهلٍ وامعانٍ وتركيزٍ، ذلك أنَّ ما يقرأ ليسَ أسطر من الرومانس بل ديباجةً من الفلسفةِ. ليس قصائدَ يعلو فيها الخيالُ وتهتاجُ لها العاطفةُ إنّما كلامٌ يَعتمد العَقلانيةَ والمَنهجيةَ وتحفيز حُجراتِ التفكير في انتاجِ أفكارٍ تخصُّ الوجودَ وتشكّله والبشر بتواجدِهم وفقَ المَنطِق الماثل والحِجَج البيِّنة.

تَذكُر أنَّ شبيه هذا الكتاب كان يأتي به زوجها/أبوه العامل في مَعمل اسمنت المدينة بعد أشهر من زواجهما فتسألُه

ضاحكة: أأغراك صاحبُ الشَّعر الأشعث واللحية الكثّة الذي في الغلاف؟.. كيف تقرأ كتاباً ضَخماً كهذا وأنتَ الرجلُ الأمّي؟.. فيردُّ بشيءٍ من الاعتزاز: مُجرَّد حملي له يشعرني بأنّي مُهم.. لو كنّا مُتعلمَين أنا وأنتِ لقرأناه وتنوَّرنا، ولكنّا في غير هذا الحال؛ هل تعرفين ما اسمه؟

تلوي خارجةً الى المطبخ تعدُّ له العشاء غير آبهةٍ بالاسم؛ ولا مَن يكون.

كان الابُ ينتمي لجوقِ الذين حُرموا من تلقّي العِلم بالقراءة والكتابة، إذ التعلمُ في زمنه وزمن آبائه مُحرَّمٌ بوصفه وسيلة من وسائل الحكّام وخططهم لتدمير دينِ الآباء وملّتهم. فكانت العتمةُ، وكان الظلامُ.. كان التعثّرُ، وكان الانكفاءُ.. كان ثمَّةَ نفقٌ غائرٌ لا ينتهي ببصيصِ نورٍ... فالحياةُ عَماء.

الكِتابُ قادَ مشرق / الابن لدربِ كِتابٍ آخر، فآخر.. ووجدَ بالآخرِ قاموساً من مفرداتٍ تشُع، وأسطرَ تعجَّ بالنماء، وصفحاتٍ كأنَّها العالمُ الدرّي، تُطلعه على تضاريس متفاوتةٍ لجغرافيةٍ مَعرفيةٍ فتحت إزاءَه بابَ الاستقبالِ، فانهالت عليه فراشاتُ الانشراحِ تهفهفُ بأجنحةٍ مَخمليةٍ، وأخذت الخُطى لميادين ثقافةٍ لا حدودَ لها. يتلفَّت على الجانبين بعينينِ مُغرقتينِ بفيوضِ الدهشةِ ورغبةِ امتصاصِ كلِّ جزئيات الجَمَال.

يقول: "إنَّ الجَّمْالَ بِغيَتْي وَسَعيْي وَمَرامْي."

فيتعالى جيشُ الفراشات ابتعاداً ثم يعودُ بموجةٍ مَصحوبةٍ بأنسامٍ سُرقت من كَثافةِ أزهارِ شجيراتِ الرازقي.. يَفتحُ صدرَه ويَفردُ ذراعيه ليغترفَ ما تَسِعهُ الرئتان، وما تَحمِلُه الروح.

صارَ مُصطلحُ مُثقَّف مَقروناً به ولما يبلغ الثلاثين من العمر. ما لبث إنْ قيلَ له "باحث"، فـ"مُفكِّر"، فـ"مُنَظِّر" فـ"فَيلَسوف" خُصوصاً والمُقرَّبون منه مِراراً كانوا سَمعوه يتحدَّث عن باروخ سبينوزا، الفيلسوف الذي عظَّمه نيتشه، قائلاً "إنني سبينوزي وإنَّ دماءَ سبينوزا تجري في عروقي"، وكثيراً ردَّد هيجل "إنَّ الفيلسوف إمّا أنْ يكون سبينوزياً أو لا يكون على الاطلاق" اعتماداً على عَقلٍ ثاقبٍ يُفكِّرُ ويُحلِّلُ ويَستنتِجُ على أسسٍ عِلميةٍ ثابتةٍ وراسِخةٍ، فيما اعترفَ فرويد أنَّه استلهمَ الكثيرَ مِن سبينوزا. ووصَفَه آنشتاين بالشَّريفِ والشِّجاع لِما وجدَ فيه من ايمانٍ حقٍّ وصلابةٍ تنمّان عَن كاريزما مُميَّزةٍ تبعثُ على الاعجابِ والدهشةِ. وتلك سجايا لا يحوزها إلا ذو عِلمٍ عَليم.

صارَ يقولُ، ويُجاهِرُ... يُعلِن ويَدْعو.

صارَ رمزاً.

فخافت الأم، وتوجَّل الأب.

لكنَّ خوفَ الأمِّ تبدَّدَ عندما اكتشفتهُ دخلَ الجُّموع.

وزالَ وجلُ الأبِ عندما انتبه إليه استحالَ مُلكاً مُشاعاً

يُجاهر بالدِّفاعِ عن المَحرومين، ويدعو لإنصافِ أصحابِ العقول، وأولئك الذين يبتكرونَ الحياةَ الجديدة، ويسعون جاهدين لتعبيدِ طريق الانسانية بالطمأنينةِ والهناء.

ولم ينسَ وهو وسطُ الحشود يُرشدُها ويضعُ لها الخُططَ والمَسالكَ لتشكيل كينونةٍ للتواصلِ مع مساراتِ نورِ الانسانية أنّ لّه أمّاً تحتاجه وأباً يريد منه شيئاً من الوفاء... فجعلَ يتواصل معهما، حاصداً مَطرَ الرضا يهطلُ من عيونِ سعادتِهم بقربه منهما.

❖

فوجِئَت مرَّةً برجالِ الأمن يَطرقونَ البابَ فيسألونَ عنه. ولم تكُن تحسَبَه ارتَكبَ فِعلاً يضرُّ الآخرين، ولم يتبادر لمخيلتِها تجاوزه على قانونِ دولةٍ وضِع لتسيير حياة الناس. لذلك استقبلتهم بترحابٍ؛ لكنَّها ودَّعتهم بقلَقٍ بعدما حصدت نظراتِ صرامةٍ وشراسةٍ تطفح بها عيونُهم.

قالت لزوجِها / لأبيه الذي قَدِم عَصراً من العَمل ما حَصل، وتساءلت عن عدم عودة الابن لِمْا بعد الغروب ولم تَعهدُه يتأخَّر، فهوَ من المُبكِّرين في الحضور لتناول العشاء والانضمام الى جوقةِ الكتب التي تنتظره في غرفته.

وإذ انقضت الليلة بغيابه همس الأبُ في مَسمَع الأم باحتمالين: إمّا عرِفَ بأمرِ مجيءِ رجالِ الأمنِ فتوارى، أو أنَّه

اعتُقِل أثناءَ عودتِه الى البيت.

في اليوم التالي عرفوا باعتقاله مع مجموعةٍ مِمَّن يُنظر إليهم على أنَّهم يرتكبون فِعلَ مناهضةِ الحكومة فيُعتَقَلون؛ وتتمُّ مساومتَهم بين اعلانِهم بتوقيعٍ موثَّقٍ عَدم مُعاودةِ فعلِ أذىً للحكومة أو يتواصل الاعتقال مَقروناً بمحاكمة تُنتِج حُكْماً قضائياً فيكون السجنُ بيتاً لهم، وزنزانةً يُرمون بها، لا ترحَم.

ولم تمر ثلاثةُ أيامٍ حتى عاد. ومعه عادَ مَن أعتُقِل بعدما وقعوا بما لا يتسبَّب بالضررِ للحكومة.

غير أنَّ هذه التواقيع كانت مَحضَ اعلانِ توقّفٍ مؤقتٍ لمسارٍ علميٍّ ومعرفيٍّ ممزوجٍ بخضابٍ سياسي.. فالذي دَخل عقولَهم وتبارى على أرضِ الواقع المُعاش بيانٌ انساني قرَّروا أنْ لا حيادَ عنه مَهما كلَّف الأمر... إنّهم يرون الواقعَ تفاصيلَ جورٍ وظلمٍ وسحقٍ ومهانةٍ، تحمَّلتها الأمّة قروناً طويلة، لا يمكن السكوت عنه.. يرونَه فقراءَ وجياعاً ومحرومين ومقموعين لا يجب التغاضي عن معاناتهم.. يرونَه جهلاً وتخلّفاً وتهالكاً وإهمالاً لابُدَّ مِن مَحوه.. يرونه قُبحاً يناهض معنى الجمال.

إنَّ الانعطافات لا تقرّرها الرتابةُ في الحياة، ولا الوتيرةُ المستمرةُ لحركةِ شعوبٍ رأت في قدرِها الخنوع والدِّعة والمَهانة فارتضته واقعاً؛ لا، ولا دعْهُ يأتي، دعْهُ يَمر إنّا هنا لقاعدون؛ إنَّما ضرورة التحدّي وارتقاء الوعي الى الانتفاضِ والثورةِ،

ضـرورة التضـحية وتقـديم الارواح نـذراً وبسـخاءٍ، لتحقيـق الحرية. فالحريةُ هي المآل والمرتجى، لشعورِ الانسان بأهميته؛ وهـي إحـدى المَحطـات النيّـرة الـتي يقـف عنـدها نائلُهـا، باثّـاً وهجَها رسائلَ دعوةٍ للآخرين كي يكافحوا من أجل نيلِها.

إنَّ نيلَ الحريةِ يعني اعترافَ الانسانِ بكبريائه المُصان؛ يعني جوهرَ الوجودِ النقي؛ يعني أنْ تفكّر في ما يُعزِّز القيمةَ العظمى لخلقِكَ على أرض وجِدتَ عليها لتبني وتعمّر لا لتهدِّم وتخرّب؛ يعـني بنـاءَ أُسـرةٍ تُشـكِّل عَمـادَ الهيكـل المجتمعـي الرصـين، وتحسبها اللبنـة المتينـة الـتي تتسـاوق مـع لبنـاتِ التـاريخ المُشـرق لأناسٍ تتوخّى الحياة بهناءٍ ومَسرَّة.

قالـت لـه يومـاً وكانـت في شـوقٍ لرؤيـةِ ذلـك البنـاء يؤسِّـس لوجودِه الأسَري: مُنيتي أنْ أرى لكَ زوجـةً تشـتَّقُها مـن نـور رؤاك للحياة، وأولاداً يقتفون خُطاك في حُبِّ الشمسِ التي أحببتها.

يومها ابتسمَ، بنظرةٍ مُشرقة. وهمسَ يُطلِعُها:

"هل تحبّين العِطر، يا أمّي؟"

"ومن لا يحب العطر! إنه روحُ الورد، يا ولدي."

"إذاً، اخطبي لي عِطر بنت عبد الغفّار"

تهلـلَّ الوجـهُ الأمـومي، وتواربـت أسـاريرُ الـنفس علـى حَقـلِ ورود.. شمَّت الأشذاء القادمة من شتى الاتجاهات.

في اليوم التالي وجدت نفسَها بمصاحبة ريم / ابنتِها/ أختِه

تطرق البابَ فتستقبلها أمُّ عِطر بالترحاب بينما تلوذُ عِطر في غرفتها تُطلق بالونات الأحلام في فضاءِ مخيَّلتها العاجّة بالشوق للذي جَعلته قَمراً في أماسيها المتتالية، وتنده على فراشات رياضِ الدنيا أنْ تأتي غيوماً مثقلة بمطرِ الأريج الروحاني لتنثُّهُ سعادةً وسروراً، جذلاً وهناءات، تلقّي نجاحات وتحقيق أمنيات. فليس بغيرِ مُشرق تزهو الحياة؛ وليس بغير فِكر مُشرق يمكن لهذه البلاد أنْ تستقيم.. إنّها ترى في مُشرق بهاءَ مستقبلِها، مثلما تَتَجسَّد لها تفاصيل نجاحات يراكمها نجاحاً فنجاحاً ليبني لها برجَ العنفوان، ويصنع لها حدائقَ تتدرجُ صعوداً لتدارك تخومِ الكبرياء، وهامةِ الألق.

بعد تحليقِ الأحلامِ في سماءِ الروح وانتهاءِ الحديث مع جيشِ الفَراشات خرجت عِطر اليهنَّ وقد شعَّ وجهُها بنور شوق الحبيب، وقالت لها لحظات اللقاءات الجميلة في حديقةِ الحواراتِ الرحيقية أنَّ خاتمةَ الاخلاص المُخضَّب بحنّاء الوفاء هو نيلُ المبتغى. فرأين فيها العِطر اللائق في مسار حياة الابن / الأخ.

وكان ذلك المساء الذي ضَمَّ مأدبةَ عشاءٍ مَساءَ بهجةٍ. وكانت المأدبة عنواناً للمسرةّ. وكان الحظ يضحك للجميع؛ فإذ يحضر الحظ تتشكّل في سماءِ الروحِ غيومٌ ممطرةٌ بهناء ملائكي وحبورٍ تُعطِّرُه أنفاسُ اللّه.

تحدثت الأم عن رهافةِ عِطر، وجمالِ عِطر، وثقافةِ عِطر... وتحدثت الأخت عن نقاءِ عِطر، وطيبةِ عِطر، وذكاءِ عِطر.

تلقَّى الأبُ حُسنَ تصوّرهما فعجّت في قلبه أنسامُ السَّعادة، وتبارى في روحِه رحيقُ البهجةِ. تخيّلَ حياةَ مُشرق ستكون مثاليةً متكاملةً، ورأى في سلوكِه المستقبلي مَسلكاً يُحتذى.

قالت ريم: "مِن أولِ نظرة شعرتُ برهافةِ عِطر، وانتشيت لطلعتها."

راودها احساسُ أنْ ستُسعِد أخاها، وستكون السَّنَدَ القوي والأمين له.

ذلك الاتفاق والتوافق بين افرادِ الأسرةِ جعلَ عِطر اضمامةً جديدة كبُر بوجودِها كيانُ الوعي لدى الجميع.

وشاهدت عِطرُ نفسَها تدخل عالمَ الانسجام. فالأبُ والأمُّ ينسجانَ قميصَ الحبِ لولدِهما، ومعهما الأخت تتباهى. تكتبُ قصةَ أُسرةٍ دوَّنت كلَّ مفردات الألق على قرطاسِ مسيرتها الحياتية؛ وقالت للمستقبل هَلمَّ أيها الغيبُ الجميل. إنّا هنا لمنتظرون.

وكان انتظاراً أخرجه القَدَر من أحدِ جيوبِ مِعطفه؛ فكانت الايامُ كتابَ سعادةٍ، وفضاءَ حلمٍ جميل... كانت كركراتٍ تقطر هناءةً مغموسة ببراءةٍ تجمعُ أحاديثَ نفوسٍ استحمَّت بنميرِ ماء دجلة وهو يمرَّ بـ"سُرَّ مَن رأى"، ويطرق بابَ

عبد الغفار موقظاً أفرادَ بيتِه على صباحاتٍ من أيام توخَّت ساعاتُها تجسيدَ الطمأنينة والاستقرار، ومعهما التعاضد والنجاح.

وكان إن نَعِم مُشرق بأريج عِطر. ووجدها التميمة التي تبصمُ جغرافيةَ النجاح، وتُحدِّدُ تضاريسَ انطلاقِه في دربِ النضال.. وجدَها الجَّمال الذي يَبحث، والرهافة التي يتمنّى.. يردِّد بين أسوار قلبه: إنَّ الجَّمْالَ بِغيَتْي وَسَعيْي وَمَرامْي."

ومن جانبها وجدت عِطر أنَّ السعادةَ منشورٌ كبيرٌ مليءٌ بمفرداتِ الجذل، وإنَّها سورةٌ ملائكيةٌ تضمُّ مفرداتٍ قالتها السماء فَرِحةً، مقرونةً بمباركة الله.

تتساءل، وقد قطفت ورودَ الهناءِ من حقلِه اليانع وتَمِلت في شمّها، في احدى لحظات التأمل والتطلُّع إليه لحظةَ كان جالساً عند منضدةِ الكتابةِ في ساعةِ صباحٍ سبقها بالنهوض بساعتين اعتاد توظيفهما للكتابة:" ما هذا المدُّ الغامرُ من البهاء؟!.. ما هذا الطوفان من السرور الذي يغمرها؟!.. كيف تبدّت لها هذه الهبةِ النورانية، وأغدق الله عليها كلَّ ما تمنَّت؟!

كان مُنهمِكاً يكتب وقد تدلَّت خصلةٌ من شعره الفاحم على جبهته البيضاء؛ تضمّه البيجاما الرصاصية اللون، المقلَّمة بخطوط طولية زرقاء داكنة بينما النافذة الذي فتحها مع اطلالةِ الفَجر تقحم وجهَه وانفاسَه بعطرِ شجرةِ الكاردينيا مِن

حديقةِ البيتِ الصغيرة التي كرَّسها لشجيراتِ الورودِ العاطرة: جوري ورازقي، ودفلى.. يكتبُ على ورقِ الروحِ ما يَنبغي، وما يَجب.. يفتضُّ القراطيسَ البيضَ ويملأ اسطرَها بما يتوهَّج في عقلِه من رؤى يقدِّمُها وجبةً فكريةً لقرائه المنتظرين ما يرسم لهم خريطةَ حياةٍ يتمنّونها رياضاً يسمو باليناعة، وسماءً تنثُّ عليهم رذاذَ الهَناء، في عالمٍ كان يقول عنه لا يمكن أنْ يُبنى إلا بالأحلامِ المشروعةِ، المَتبوعةِ باليقين والجدِّ والإقدامِ على تحقيقها.

تدنو من ورائِه وتطوّقه هو والكرسي الذي يضمُّه بذراعيها؛ ثم تطبعُ قبلةً على جانبِ رقبته، ومعها تهمسُ في أذنِه: كلُّ كلمةٍ تكتبُها شمعةٌ؛ كلُّ عبارةٍ ضوء.. لو أرقى لرُقيِّكَ الثقافي لدوَّنتُ مع جُملِك جُملاً تهدي القراء إلى محطّاتِ الوعي، وتقودَهم إلى مَجرات بناء الذات المُشبَّعة بحبِّ الانسانيةِ الطامحةِ لإدراكِ جزرِ الاشراق.

يستدير بنصفِ جسده، ويريها دهشةَ ما سمِع منها، واعجاباً بما فاهت.

يسحبَها، ويضمَّها اليه؛ طابعاً قبلةَ امتنانٍ على شَفتيها.. يقول:

"ثقافتُك كانت الشيفرةَ التي فكَّكتها فأسرَتني، فلحقتُكِ، فاقترنتُ بكِ زوجةً تقدَّمتني لتُمهِّد الدَّربَ. ولم

تَتَخلَّفي ورائي.. أظنّهُ مُخطئٌ مَن قال وراءَ كلِّ عظيمِ امرأة. الأجدر به القول: أمامَ كُلِّ رجلٍ عظيمٍ امرأةٌ عظيمة."

سَعُدَت لما سمِعَت.

طارت طيورُ الهناء من بُستان قلبِها تهفهف بما يشبه النشيد الكورالي على ايقاع هارموني مُتجانس.

أمالت برأسِها ليلامس خدُّها خدَّه.

وسمعَها توشوشُ في أذنه: يا حبيبي!

وقبل أنْ يردَّ على نغمةِ وشوشتِها وردَهما من عمقِ المَطبخ صوتُ أمّه تدعوهما لتناول الفطور؛ ويسمعان ريم تَطأ درجات السلَّم هابطة من غرفتِها وهي تستجيب بتحيةٍ الصباح تبعثها إلى أمِّها عن بُعد.

فطورٌ يتناولونه على ايقاعِ انسجامٍ عَذب، وتبادلِ مشاعرٍ مقرونةً باحترامٍ وود.

وإذ تعود ريم إلى غرفتها، وتتهيأ لارتداء التنورة الرصاصية والسترة الزرقاء، بدلة الزي الموحد الجامعية، تعرِّج على كرّاسة اليوميات، فتكتب:

١٠ مايس: نهارٌ مُشرقٌ وفُطورٌ شَهي.. أنا على اعتابِ انتهاء المرحلة الثالثة من الدراسة في قسم اللغة الألمانية كليّةِ الآداب.. مُشرق منهمكٌ في الكتابة، يتهيأ لإصدار كتابَه الفكري الثالث يتناول فيه البعد الفلسفي لمجتمع شرقي تهيمن عليه

أعرافٌ يراها مريضةً تَحتشدُ في كهفٍ عَتيم، ويحاولُ ايجادَ مَخرجٍ ولو بسعةِ خُرم ابرةٍ للخروج إلى بطاح النور.. عِطر تستعدُّ للذهاب لمدرستِها الاعدادية، فالفيزياء درسٌ مهم تنتظره طالباتُها باهتمام. في بطنِها جنينٌ تحرص على أنْ تتمخَّض به يوماً ليكون ولداً تحسبه الكِثْابَ الأهم الذي انتجه مُشرق في حياتِها الزوجية.. أمّي تنهمكُ في المطبخِ لإعدادِ وجبةِ سعادتِنا التي تريدُها دائمة. وهي يومياً ومعَ كلِّ صباح نقرأ في وجهها تقاسيمَ البهجةِ كوننا عائلةً تمتلكُ مواصفات الألفةِ والانسجامِ، فهي سعيدةٌ.. أما أبي ففي معمل الاسمنت، عاملاً يَسقي الحَجرَ ناراً ليصنع مادةً رصينةً للبناء؛ وفي البيت ربُّ اسرةٍ ينشرُ جناحَ حنانِه على الجميع فيُشعِرُهم بأهميتِهم في مسارِهم البَشري الذي يتطلَّب أنْ يكون الانسانُ مُنتجاً، يضاهي بإنتاجِه انسانَ الأممِ المتقدمة.

(٣)

في ساعةِ العصرِ برَحت أمُّ مُشرق البيت. كان مُرادُها الذهاب الى الملويّة لحصادِ ما يتنبأ به الغيبُ ويُظهرُه علامةً دالة.

اجتازت الشوارع الرئيسية وخلّفت السّوقَ الرئيس. دخلت العديدَ من الأزقة وخرَجت منها، حتى غدَت في فضاءٍ مَكاني مُنسرح، يتجلّى على البُعد بهاءُ ملويّةِ المتوكِّل، باثّاً حِكايةٍ هندسةٍ معمارية ترتفعُ عن الارض بما يزيد على الخمسينَ متراً.

هناك اجتازت رواقات عديدة، ثم خرجت إلى فسحةٍ واسعةٍ انتهت عندَ البناءِ الحلزوني فارتقت درجاتِ سلّمه الحزونية، مُقرِّرَةً الوصول إلى القِمّة، والوقوف في " الجاون" قبل تتوجّهها الى مدينة السماوة، هناك في جنوبِ البلاد، للانطلاق مِنها الى البرِّ الصحراوي للقاءِ مُشرق.

كيف هو مُشرق الآن؟.. كيف يعيش، وكيفَ يَقضي أيامَه... ماذا كتبَ، وماذا سيكتب؟

ارتقت وفي قلبِها أمنيةٌ ترجّت اللّه تحقيقها.

من احدى نوافذ الجاون/ القِمّة رمَت عباءتَها ونزلَت شَغيفة لَهيفةً لترى إنْ كانت العباءةُ مَفروشةً على الأرض فتأخذُها

النشوى في تحقّق لقاءِ الابن، وبشارةِ اطلاقِ سراحِه القريب.

وكانت في نفسِ الوقتِ قَلِقةً خشيةَ مُشاهدة العباءة مُنكمِشة أو ملفوفة فيغمرُها الكَمَد وتجد في الرحلة اليه تعثّرات وعوائق، مثلما تتشاءم من بقائِه معتقلاً لفترةٍ طويلة، فلا تكحِّل عينيها بمشاهدتِه يومياً يبرح البيت ويعود شابّاً تتباهى بزهوهِ وعليائه.

إذ وجدت العباءةَ مفروشةً اطمأنَّت وقد غدا الطريقُ أمامَها سهلاً ميسوراً.

في دربِ عودتها عرّجت على سوقِ المدينة... فغداً صباحاً تبدأ رحلةُ المئات من الكيلومترات، وصولاً إلى السماوة.

عرَّجَت لتبتاعَ حاجاتٍ تشكِّل ضرورةً عنده هناك؛ وسطَ الصحراءِ التي كالبحرِ، وداخلَ الزنازين التي كالسراديب.

حفَّزت ذاكرتَها لاستعادةِ المواد، ودقَّقَت حتى لا تنسى مادةً: خيوطٌ حريريةٌ وأصداف، نمنمٌ متنوعُ الألوان، قطعُ أقمشةٍ كتّانيةٍ، سحّاباتٌ، حلقاتٌ معدنيةٌ ذهبية وفضيّة كَتب الى أبيه يوصيه أنْ تأتي بها أمُّه في زيارتِها القادمةِ مُفصِحاً له أنّه تعلَّمَ، مِن سُجناء سَبقوه تضمّهم زنزاناتُ الاعتقالِ منذُ أعوام، صناعةَ حقائب يدوية مُنمنَة، وجوزدانات؛ دُبيةَ وأرانب، جِمال وأحصنة؛ لوحات من قماش مُنمنَم تتجلّى على سطحهِ ورودٌ النوّار والدفلى متفتحةٌ تتكئ على أغصانٍ خُضر تنبثقُ

من سنادينَ زاهية؛ ولوحاتٍ تتوَّهجُ بأحرفٍ عربيةٍ تُنبىء عن حِكَمٍ وأقوالٍ لمُفكرينَ عِظام أثروا الانسانيةَ بدعوةٍ تنقيةِ النفس البشرية وابعادِ الاستغلال وانهاءِ الظلم محو العَسَف عن مَسارِ البشريةِ، والعمل على جَعلِ الحياة أقلَّ قسوةٍ ومُعاناةٍ وحرمان.

لقد جلَبت في زيارتِها السابقةِ اليه عَدداً منها، حاكَها هو ومَن مَعه من السجناء، وزَّعتها على الأقارب والجيران، وعلى مَن زارتها في البيت تساؤلاً عن كيفيةِ قضاءِ فترةِ سجنِه، وتفاصيلِ يومِه، وما هي معنوياتُه هناك في الهَجير الصحراوي.

في البيتِ دعَتْ عِطر وريم إلى الاستعدادِ للسَّفرِ، وتهيئةِ النفس لتحمُّل رِحلةٍ شاقَّةٍ.. رحلةٌ ستكون بمحطّاتٍ مُتَعدِّدَةٍ عليهن اجتيازُها بالصبر، ويقينٍ حصولِ مُفاجآتٍ لعلَّ أصْعَبَها يتمثَّل برفضِ سلطاتِ السِّجنِ المقابلة بأعذارٍ مُختَلَقة القصدُ منها التأثيرُ سلباً على معنوياتِ المعتقلين من جهةٍ، واشعال حرائق الجوى في نفوسِ أهليهم ممن جاءوا زائرين مُقرَّبين تجشَّموا عَناء سَفر بعيدٍ وشاقٍّ من أَجلِ لحظةٍ تاريخيةٍ تُحقِّق لقاءً حلُموا به.

وكان الصباحُ التالي مَثابةَ انطلاقٍ باتجاهِ الجنوب.

عندما يتحرَّكُ المَرءُ مُحمَّلاً بالأحلامِ ومَغموراً بالرؤى قَصدَ تحقيقِ هَدفٍ أعدَّ له الكثير لابدَّ للقَدر من ابداءِ رأفته؛ فليسَ

عَدلاً الانهيالُ بمطرقةِ الألم والشَّقاء على سِندانِ الروحِ الصّابرة التي تحمَّلت أطناناً مِن الأذى.

إنَّ الأقدارَ في كثيرٍ مِن الأحيانِ تصبحُ رَحيمةً، تقفُ إلى جانبِ الانسانِ المَقموعِ فترأفُ به، وتمنحَه فُسحةً مِن الإشراق، وتدعوهُ إلى النَّهل مِن فَيضِه.

إنَّنا مُحاطون بالأمَل وإنْ تكدَّرت سَماءُ الأيام، وإنْ هَطلَ الكَمَدُ مدراراً.

(٤)

عِطْر

هو ذا قلمي الذي أُدوِّن به سَعادتي؛ وها أنا ذا صَفحتُهُ التي تتهيَّأ لبصمةِ خَطواته... يأتيني مُحمَّلاً بالكلماتِ المُعطَّرة بشذا أنفاسِه، وآتيه بشوقِ مَن عَشِقنَ فنثرنَ الروحَ عِطراً يَعمُّ فضاءات عشّاقهنَّ.

أقولُ لكَ: حضورُك يُلغي قَلقيَ الذي تراكمَ في ليلةٍ تركتني وأنتَ تقول سأعودُ لكِ غداً. لكنَّك لم تأتِ. ولم تُعلِمُني مُسبقاً باحتمالاتِ تأخُّرِك لأسبابٍ أنت تعرفُها ولا تودّ افشاءَها... غيابُك صنعَ يومي عاصفةً هوجاء من العَتَب، ذلك أنَّك تُقدِّر حَجمَ الخشيةِ في افتقادِك، وأنا أنتظر.

وكان المطرُ يأتي مِدراراً؛ ينادي على الأماني لتخلَّع أرديتَها وتَتَعرّى، فيُعمِّدُها بنقائِه وضحكتِه.. يوشْوِش في مَسمِعها: تَجمَّعي أيتُها الأماني فَلكِ منّي الصَّفاءُ والعُذوبةُ، والعسلُ... استحمِّي، وحَمِّمي قَلبَك برَذاذٍ أتيتٌ به من جِنان الخُلد؛ ثم اخرجي الى الحبيبِ، وقِفي على قارعةِ الانتظارِ والهوى.. انتظريه مُحمَّلاً بقوارير الهمس سيأتيكِ.. لا تَضجَري ! سَيأتي.. لابدَّ أنْ يأتي.

ورحتُ أنتَظرُ..

أنتظرُ مِنكَ هَمسَةً تَحملُها كلمةٌ مغموسةٌ بالاعتذارِ لأثثرَ الطُّمأنينةَ على بطاحِ القلبِ المُختلِج وأرشَّ رَذاذَ التأنّي على أعصابٍ تتوخّى السّرعةَ كي تجمع الهدوءَ، فأقول إنَّ له العذرَ، فما عادَ مُلكَ نفسه، وما عادت اللحظاتُ التي كانت تُضمِّخُ تواصلَنا بيده.. إنَّ حيواتنا للقطاتٍ تترى مِن فيلم الزمن، وإنَّ الأحداثَ التي تجري لنا أو التي نصنعَها بأيدينا ما هي إلّا محطاتٌ متواليةٌ بعناوينٍ صامتةٍ في هاتيكَ الفيلم... أذهبُ مَغمورةً بشوقِ قِراءةِ ما نُشرَ لكَ على صفحاتِ الجرائد وبين اوراقِ المَجلّات، مع أنَّ ما سأقرأه منشوراً قرأته مُسبَقاً وأنتَ تعرضه عليَّ قبلَ النشر لأُدلي برأيي عنه. الرأيُّ الذي كثيراً ما صارحتني بأنّه يَهمُّك كثيراً. فمنّي، كما كنت تقول مراراً، تدركُ الأخطاءَ قبل وصولِها للقراء، فتَتَداركَها. ومنّي كثيراً ما تَتَلقّى عباراتِ الثناءِ مسبوقةً بالإعجابِ والدَّهشة فتندفعُ بإرسالِها الى الصُّحفِ والمَجلاتِ مُطمئنّاً وواثقاً.

*

أجلسُ مَعه في حديقةٍ لم تصلها قدماي يوماً ولا سمعتُ بها من أحَد، إنّما هو مَن حدَّدها وبيّن لي موقعَها وتضاريسَها. قال عنها أنَّها المكانُ الذي سيجمعنا سويةً؛ نرى الناسَ ولا يروننا. فيه نتبادلُ الهَمسَ كلاماً عَذباً، ونقولُ الأمنيات شِعراً. نصغي

بالسمعِ الرهيفِ اللهيفِ لغناءِ بُلبُلٍ يتقمَّص هيئةَ انسانٍ عاشقٍ يناغي عَشيقةً لم تأتِ بعد. يسمع خطواتها قادمةً، وفي الأعلى سحابةٌ تظلُّلها بفيءٍ طري من وهجِ شمسٍ قد تتسبَّب بإرهاقِها.. إنَّها ساعةُ اللقاءِ المُرتجى أيتُها الوردةُ الغافيةُ على نقاءِ ندىً أتى به الفجرُ ليُطعِم وجنتيكِ.

وبقيتُ قبلَ اللقاء اتساءل أهيَ حديقةُ الحلَمُ المبتغى أم الرياضُ التي قال عنها الله "جنّة عرضُها السماوات والأرض" أُعِدَّت لنا لنقيمَ كرنفالَ عشقِنا الموشوم بابتساماتِ أطفالِ فقراءٍ صباحَ يوم عيد؟

أستعيد لقاءنا الاول، ذلك الذي جرى في أمسية أدبيةٍ كان للمكانِ فيها هيمنةٌ كشيفرة مركزية مؤثّرة في النص، وكانَ المُحاضِر يتناول "جَماليات المكان" لباشلار، وظاهريةُ هذا الفيلسوف الذي قرأتُ له من قَبل كتابَه "شاعريةُ أحلامِ اليقظةِ"... في تلكَ الأمسيةِ قدَّمه مُديرُ الجلسة باسم "مُشرق" فأسهمَ بمُساجلةٍ أكَّد فيها أنَّ باشلار فتحَ للأدبِ العراقي أُفقاً واسعاً عن المكان واهميته، وشقَّ للأدباءِ مَساراً يأخذُهم إلى مَحطاتٍ سيدركونَها، ثم يخلِّفونَها لمحطاتٍ أُخر وأُخر تؤسِّس للمكانِ بوصفِه أُسّاً لا يمكن تجاوزه، وليسَ من الحَذاقةِ التعالي عليه واهمالِه، فهو الجرّةُ الثمينةُ المملؤةُ بياقوتات انبعاث الشَّدَه المضمَّخ بالدَّهَش، والتي تصنعُ للقرّاء مَوجة

أنسام نصيّةً تمنحُهم اللذاذةَ التي ينتظرون، والعذوبةَ التي يتوخون نيلها.

يَومَها اقتربتُ منهُ حالَ نزولِه من المنصَّة، وتفوَّهتُ لمرتين باسم مُشرق قبل أنْ أُسمِعه اعجابي بما عقَّب. ذلكَ الاعجابُ الذي اتَّسَعت لعظمته عَيناه مودّةً، وفاهت شفتاه بكلمةِ شكرٍ مُنغمة، مَغموسة برحيقِ مَشاعره، ومَقرونة بابتسامةٍ عَريضةٍ لها طَعمُ رسالةِ امتنان، أو هي برقية مُفرداتُها القليلةُ تُبَشِّرُ بخبرِ نجاحٍ مُتميز.. ابتسامةٌ ترجمتُها رأسَ خيطِ وصالٍ سلَّمني إيّاه، وقال سيماءُهُ البهي: أَمسكي به، فلا تقطعيه أو تهمليه."، فأمسكته؛ بل لففتُه على يدي لئلّا يفلت، فتفلتُ لحظةٌ قد لا يتواجدُ الحظُّ ليكررها؛ وأنْ أردِّدَ اسم "عِطر" مرتين ردَّاً على سؤاله الروحي عن اسمي.

وكان إنْ امتدَّ الخيطُ ليحكي بامتدادِه حكايةَ تواصلِنا المُرتجى، وتبادلنا الحديث الذي نروم، والبوح الغارق في عذوبة الشوق المأخوذ من رموشِ عُشاقٍ سكبوا أرواحَهم زيتاً لإدامة شعلة الحب، فأجده ذلكَ الشاب الأنيق الذي تمنيّته، ويجدني تلك المخلوقة الوسيمة التي رسمَها في مُخيلته يوماً وودَّ استحالتها واقعاً فالوسامةُ لابدَّ أنْ تكون صِفةً للنساءِ كما أفصحَ يوماً؛ مُضيفاً أنه يكره النساءَ السِّمان. يَقول عَنهنَّ انهنَّ كالجواميس لا يَعرفنَ غيرَ الأكلِ بشراهةٍ.. كلامُه عنِ

الوسامةِ جاءني هَمساً في أُذني. وجاءت أنفاسُه تُفعمني بدفءٍ أيقظ فيَّ جَمرَ عِشقٍ روحي قال عنه كعشقِ جميل لبثينة، أو هيَّجَ أوارَ النارِ المُعتلجَةِ في قَلبِ قيس لابنةِ عمِّه ليلى.

أُلبّي دعوةً له دعاني راجياً أنْ أزوره في بيتهِ بعدما تكرَّرت لقاءات الحدائق، ورأى بتخطّي أبجديةِ تينكَ اللقاءات إلى لقاءات أكثرَ حميميةٍ تَتمثَّل بضرورةِ مَعرفَتي لتفاصيل وجزئياتِ يومِه مترافقةً بمكانٍ لابدَّ لها مِن التعامل مَع شيئياته.

أدخلُ غرفةً رمتني في وادٍ أخضر يانع من الفَرح والاعجاب: سريرٌ بشرشفٍ ورديٍّ فاتح ووسادةٍ ورديةٍ ناصعة تكتنزُ في زاويتها اليُمنى باقةُ وردٍ لقرنفلٍ أحمر ورازقي تضحك وريقاتُها بتفتّحٍ يبعث على الاسترخاء.

تجاورُ السرير منضدةٌ ساجيّة ضاربةٌ الى الدِّكنةِ ارتكنَ على جانبٍ منها مُصباحُ اضاءةٍ وحزمةُ أوراقٍ مع صفيفِ أقلامٍ جافة متنوِّعةِ الألوان.

النافذةُ الوحيدةُ العريضةُ شُبه مُغلقة ولها ستارةٌ بيضاء ثلجيةٌ ناصعةٌ وزهرتا لوتس ليستا صفراوين بل قرمزيتين تحتلّان الزاويتين العلويتين فيما الزاويتان السفليتان امتلأتا بزهرتي عباد الشمس لهما غصنان أخضران داكنان ضاعت نهايتاهما في انثناءات عديدة أحدثها ضغطُ حافةِ المنضدة على ما تبقّى من تلك الستارة.. أما باقي تكويناتِ الغرفةِ فرفوفٌ امتلأت

كتباً وارتفعت تحاذي السقفَ المزخرفَ بنقوشٍ مَغربيةٍ مُذهَّبة ومُطعَّمة بلونٍ فيروزي مشوب بالسواد. اتكأ على أحدِ الرفوفِ العُليا أدوارد مانيه يجاور لوحته الشهيرة "حانةٌ في فولي بيرجر" التي انتَجَها قبلَ عام مِن وفاته ومثَّلت الحياةَ الباريسيةَ المُترَفَةَ الموشومةَ بالصَّخَبِ واللهوِ والتسليَّة وارتفاعِ الموسيقى كفاكهةٍ عَذبةٍ تُغذّي الروحَ، جَعلها أحدَ مُعجبي فنِّه غِلافاً أماميّاً لكتابه.

يقول، وقد بدا مُهتمّاً بشيءٍ يريد الوصولَ اليه: تفضَّلي أجلسي، يا عِطر.

وكنتُ أبغي اطالةَ وقوفي لأدورَ بنظراتي مُحفِّزةً عيني على امتصاص جزئيات الغرفة وزواياها. أبغي سَحْبَ سقفَها وارضَها إلى حُجُرات الذاكرة لأتحاور معها ليلاً لحظةَ أضع رأسي على الوسادة وأدخل مَحطةَ السفرِ بقطارِ الذاكرةِ الراحل صوبَ مَجرّات الأحلام العِذاب.

أجلسُ على كرسيٍّ بمسندين وأتأمله يجلسُ على كَرسي الكتابة يدوّن عبارةً أو جملةً توهَّجت في ذاكرته فجأةً فآثرَ حفرَها على الورق لئلّا تَهرَب وتنمحي من الذاكرة غب نهوضِنا وافتراقنا، ذلك أنَّ الكتّابَ محكومونَ بهوسِ تدوينِ أيّةِ خاطرةٍ تمرُّ في سماءِ اذهانِهم، وإلا سيرميهم النَّدمُ بسهامِه الجَّارحةِ ويرديهم بلوعةٍ حارقةٍ ولومٍ ليس باليسرِ تجاوزُه.

أتأملـه بانحنائـه علـى الورقـةِ البيضـاءَ المنتظـرة بظمـأٍ مَطـرَ روحِه على منضدته وامسـاكه قَلمـاً يسـفحُ حبرَ جوفِه الأزرق، فتتبـارى الكلمـاتُ في رأسِـه وتعـجُّ في قلبـه تـرومُ الـولادةَ غـير القيصرية.

يلتفت بعدما ينتهي، فيقول اعتذاراً: سامحيني !.. كـثيراً مـا يتصـرَّفُ الكُتّـاب بعبثيـةٍ مُلفتـةٍ وسـلوكٍ يبعـث علـى الغرابـة؛ لكنَّها لوثةُ الكتابةِ التي تضـرب اذهـانَهم؛ والتعنيـف القاسـي للروح إنْ لم يدوّنوا فكـرةً مُفيدةً شاردة.

أردُّ: لا يَهُم، يا مُشرق.. لا يهم.

أدري أنَّ أكثـرَ الأفكـارِ أهميـةً تلـك الـتي تمـرُّ بـالرأس كالومضةِ ما لَم يقطفوها ويرسموها شيفرة مهمّة لموضوعٍ مُهمٍّ توارت، راميةً بهم في هوّةِ اللومِ العنيفِ والتعاسةِ المُرَّة.

أعـرفُهم مَعشـرَ الكتّـاب، وقوافـلَ المبـدعين، مفكّـرين، وفنانين، وخُلاّق. أولئِكَ الذين أثروا البشرية بما يجعل الحياة رحلةً فـوق غيمـةٍ تجـولُ بهـم علـى مرابـع تحييهم سـعيدةً، تلـوّحِ بأذرعها ترحاباً؛ واجدةً فيهم صنّاعَ حياة خاصة، لـو نزلت إلى الأرض لكانت يوتوبيا تنتفي فيها القَباحةُ ويعمُّ الجَّمال. يـزول الظلمُ ويرفل الحقُّ... يرفلُ شاباً فتيّاً يَهبُ الجميعَ عطرَ الهناءِ الـدائم، ويبـثّ في الاعمـاقِ شـعورَ المسـاواة والعـدلِ النـاجزين... يوتوبيـا بمثابـةِ جنّـة شـبيهةً بـالتي رسمَهـا اللّه يومـاً لمؤمنيـه،

ووعـدَهم بهـا إن اسـتقاموا أنقيـاءَ صـادقين مَعـه ومَـع انفسِـهم والآخرين.

يبتسم لغِنى ما أقول، ولسعة ما أُفضي لهُ به.

وإذ ألمحه يهمُّ بقولِ ما يُريد أرفع سبابتي وأَرسيها على مَرفأ شَفتيه، مُعترضةً دفقَ ما كان يريد البوح به.

عنـدها يأخـذ بيـدي فيقبّـل ظـاهرَ كفّـي، ويجعـل عينيـه تتولّيان ما يريد قوله.

أعرفُ ما كان يريد الافصاحَ عنه، وأُدرِكُ من بريق عينيه أمـراً لا يبغـي اخفـاءه... إنّـه يـروم الافضـاء بـأنني طالمـا اخترتـه قريناً وزوجاً فعليَّ تحمُّلُ تَبِعات ما يجري له. فطريقه الفكـري والمَعرفيّ شائكٌ ومليءٌ بالمطبّات؛ وكتاباته بما تتضمَّن من آراء لا ترضي الكثيرين. وهذا ما يُعرِّضُه لمواقفَ تَجعلُهُ على سِكَّة الخَطَر، لا سيما ونحنُ في أمّة تخشى المُفكِّرين، وتتطيّر من العُلماء... فكَم من مُفكّرٍ لاقى الأذى اليومي؟ وكم من عالمٍ استهين بعلمِه وعُوملَ معاملةَ الجُّهال والمتسكعين.

كثيرٌ منهم لم يطقوا الهوان فُماتوا كَمداً وهم يرثون أمّةً لا تعشقُ النور ولا ترتضيه حتّى، بينما هاجرَ كثيرٌ آخرون إلى بلدان تلقَّفتهم طاقات معرفية جاهزة فوجدوا على ارضِها البيئة التي يعيشون فيها برخاءٍ ويبدعون براحةٍ واطمئنان.

كانت أم مُشرق ترى أنَّ السياسةَ تسبِّب الصداعَ لمن يتعامل

معها، وتخلق الارباكَ والتوتر لأسرته. وتروح في كثير من الأحيان تتساءل عن جدوى رَمي الانسانِ نفسَه في مستنقعٍ كهذا، فلا يخرج إلا وهو يؤرجِحُ رأسَه جَزعاً ويتمتم في نفسِه مَلَلاً، كما لو كان يستفهم روحَه: ما هذا الذي ارتميتُ في وسطه فلم أجني منه غيرَ الأذى والأسف وسيلِ الامراض العضوية: سكَّر، وارتفاع ضغط الدم، واحتدام، وتوتر دائم؟

وكان أبو مُشرق يرى أنْ لا سياسي عاشَ مستريحاً، إنَّما يصرفُ ايامَه وأعوامَه في قطارِ التصارعِ والتَضاد. فما أنْ يصل مَحطةً من مَحطاتِ تحقيقِ المُرادات حتى ينطلقَ إلى مَحطات أُخَر يدري أنَّها لا تمنحهُ صَكَّ تَحقيقِ الأهداف.

إنَّ السياسيَّ في نَظرِه مَخلوقٌ يتوقُ إلى المشاكل.. يصنعُها؛ فيحبُّها، فيستسيغُها؛ ثم تَصبح عنصراً مهمّاً في سلوكه اليومي. لذا تراه ما أنْ يَمسكَ صحيفةً حتى تندفعُ نظراتُه إلى الصفحة الأولى، يقرأُ الأخبارَ العاجلة، والأحداث القريبة.. يتابع ما فعله هذا السياسي، وما جرى لغريمه أو غرمائه. ماذا تصرفت تلك الدولة وكيف ردَّت أو سترد الدولة المناهِضة... ثم تتحرك اصابعُه تفرد الصفحات ليقف عند صفحة التحليلات السياسية؛ ماذا كتَبَ هذا المحلل، وما قاله ذاك... لا تسحبُه صفحةُ الأُسرةِ والمجتمعِ، ولا تُغريه الصفحاتُ الرياضية.. لا يذهب إلى أخبارِ الفنانين، وما كتبَه الأدباءُ في صفحةِ الأدبِ

والثَّقافةِ.. لا ، ولا إلى ما وصل اليه العِلمُ من اختراعٍ واكتشاف.

لذا مراراً كنت اسمعه يهمس في إذن مُشرق بشيء من العطف الأبوي والخشية من العواقب: "أرى أنْ تتركَ الكتابة وتجمّد افكارَك؛ فأمامُك نماذجٌ لا تُحصى لم تَجنِ من ذلك غيرَ الأذى، ولم تحصد في نهاية الدربِ سوى القلق، والتوتِّر، وحصيلةِ عِللٍ مُزمنة تنغص عليهم حياتهم، وتتركهم يتعثَّرون مرضى لا شفاءَ لهم ولا خلاص."

*

قلتَ لي مرَّةً، في حديقةِ لقاءاتنا التي تكررت فأنتجت تواصلاً ملائكياً، ونحنُ نرقُبُ المارَّةَ من مكانِ جلوسِنا على المصطبة المحاطة بعشب يتعالى عندَ قوائمِها الأربعة كأنَّه يبغي الصعود ليسمع ما يهمس به الجالسون حين يجبرهما الحديث هَمساً خشيةَ سماعهما من جُلّاس المصاطب القريبة: " ليس على الواحد منّا الانحناء دائماً للعواصف. إنَّ الانحناءَ المُستمر يجعل القامةَ في انحناء دائم فلا تقدر بعد ذلك على العودةِ الى انتصابها.. إنَّ على المَرءِ رفع رأسه والانتصاب شامخاً صُحْبَ كلماتٍ تُزرقُه بإكسير العزيمةِ وتفعمُه بالصمود؛ فالريحُ مهما تعاظمت لابدَّ ستؤول إلى الضعفِ والهدوء، ومن ثم التواري، تاركةً المَرء بانتصابه وإنْ عانى الاصابات."

وكانت تلكَ اشارةٌ منكَ الى ضرورة وقوفي الى جانبك في

سعيك وكفاحك. فأنا الكلمات التي تمنحك الصلابة والجَلَد؛ وأنا المرأة التي سيقال عنها وقفت وراءك في مشوارِ نضالِك الفكري.

كنت أرى ما تقولُه صواباً؛ لكنَّ الواقعَ عصيٌّ على الاستجابةِ لمراميكَ وطلباتِك. وقد يكون الذين تكافح لأجلهم يناهضونك وإنْ كانوا أقلَّ وَعياً منك، وأكثرَ تبجُّحاً بأنفسِهم؛ وإنْ كانوا يُفضّلون مصالِحَهم الآنية على مصلحةِ مجتمع تريد له النهوض والسير قدُماً مع مجتمعاتِ الأرض الناعمة بالحريةِ والنَّماء... لقد قرأتُ السؤالَ الذي وجِّهَ إلى الراعي الذي وشى بـ"آرنستو تشي جيفارا" وتسبَّب بالقبض عليه ومن ثم اعدامه برصاصةٍ في القلب: "كيف تَشي برجلٍ صرفَ حياتَه يُدافعُ عنكم وعَن حقوقِكم."، وكيف جاءَ الجوابُ ساذجاً يعكسُ ضعفَ وعيِ الرجلِ بحركةِ تاريخِ شعبه المُضطَهد حين قال: "لقد كانت حروبُه مع الجنود تروِّع أغنامي."... قد يتكرر السؤال نفسه منسكباً في آذان من تكتب لهم، وتفكِّر من أجلِهم ويطيحون بك في آخر الأمر، مُعللين السبب بأنَّك تطيحُ بقلاعِ هجوعِهم، وتقضُّ عليهم نومَهم الذي لا يودّون الصحو منه، والنهوض إلى شمسِ النهار التي ترسمَ لهم دربَ الحياةِ الحُرَّةِ الكريمة.

تبتسم عيناه، ويتركهما تمطران اعجاباً بما أقول، وصدقاً

بما اطرح.

أريد أن أكتب إليه:

"كنتُ كلما دنت منكَ مشاعري المهتاجة وأوشكتُ على تقديم طلبها إليك أملاً في رضاً يغدقه قلبُك الذي حمّلته حبَّ الوطن توقَّفتُ أستعيدُ احتمالات اعتذاراتك، مُعلَّلةً بانشغالاتك الكثيرة؛ وكأنك تقول: "لا وقت للحب في زمنِ المَهام الكبرى والانعطافات التي تنتظر حدوثاً للتغيير.". فأتراجع، مؤجِّلةً الطلبَ لموعدٍ آخر، ولقاءً أرتئيه مناسباً مع أنَّ المناسبات تضاءلت. ذلك انك مهمومٌ همّاً كبيراً بقضيةٍ تراها قضيةَ الجموع.

في الليل يكمُن رحيلي إليه محمولةً على أجنحة الحلم، فأراه يفرد ذراعيه ويروح بعميم اللهفة يحتضنني ويقول همساً: "حبّي لك يمشي بموازاة حبّي للوطَن؛ وشوقي لاغترافك يعادل ارتشاف الوطَن بكأس العذوبة المشتهاة.. إنَّ للوطنِ وجوداً في قلبك حتماً، وإنَّ ذاكرتك هي تاريخ الوطن المدوَّن في الصدور مؤكَّداً.. كلاكما، الوطن وأنتِ، عشقي المستديم. لقد صارت السماءُ صحائفي التي أُدَوِّنُ على غيومِها ابجديتي العشقية لكما."

كانَ في الحُلمِ مَخلوقاً عَجيباً، لا تُقَيّدُه حدودٌ، ولا تَمنعُه موانعٌ في البوح.

يـرى نَفْسَـه "كُثَيِّـرٌ" في تَمَثُّلِـه أمـامي.. ويَحسـبني "عَـزّةَ" في تَخيُلي لهُ.

لذا عندما كنّا نلتقي يُسمِعُني مُبتسماً، وقد طفح السرورُ في عينيه واندلقَ مَطرُ الحبورِ للقائنا الجميل: "وما كنتُ أدري قبلَ عَزَّةَ ما البُكا / ولا موجعاتِ القلبِ حتَّى تولَّتِ".

أستعيد صورةَ أُستاذِ الأدب، في مرحلةِ الثاني من دراستي الجامعية، وهو يترنَّم بهذا البيت كلَّما تعالى الاعتزازُ بشِعرِنا العربي، مُطالعاً الطلبةِ بعينين تبتّان فَخراً لشعراء أضناهمُ الجوى، وكوَتهمُ نيرانُ الحُبِّ، تاركين لنا إرثاً زاخراً يستحقُّ الفِخار.

قال لي مرّة: عِطر، أريد ان اتزوجك.. اتقدم اليك مُحِبّاً، فهل ستستقبلينني بالشوق الذي يوازي شغفَ قلبي إليكِ؟.. هل ستترجمينني مَخلوقاً يقطرُ ولَهاً؛ يغوصُ في الشَّدهِ العميم، ويطفو على صدرِ موجة ولهى؟... إنني عاشقٌ شفّه الشوقُ، وشوقٌ يبتغي التناثر كورقِ الورد.. يأتيكِ مُثقلاً بالشذا، مَغموساً بالحنين.

يومها كنّا نثمل بعناوين كتبٍ نقرأها، ونتيه هياماً على ايقاع شعر قاله المتنبي هتافاً، أو جميل بثينة همساً، أو بفروسيةٍ جاهرَ بها عنترة.

وكانت ساعة سَعدٍ تلك التي تجلّت فأفصحت.

وكانَ لقاءَ تاريخٍ لا تمحوه السماء من أسطرِ صفحاتِها ذلك اللقاء المفعم بالنقاء. لأنَّ الذي جرى بعد ذلك شهدَ ازديادُ عددِ افرادِ اسرتكَ واحداً، بينما أفصحَ عن نقصانُ عددِ افرادِ عائلتي واحداً... صار سريرُ غرفتك مُزدَوَجاً، واستُبدِلت خزانة غرفتك بخزانة أوسع وبحقول متعددة امتلأت بالبدلات الرجالية والفساتين النسائية مثلما صار فضاءُ غرفتك يمور بأنفاسٍ مضافةٍ لأنفاسِك؛ تقول عنها انها انفاس الورد تأتي من مهجةِ روحٍ عاشق.

وكنتَ تقول لي بوشوشةِ العُشّاق: عِطر، لقد تغيَّرت الحياةُ عندي، وبتُّ اكتب بشراهَةٍ.. أصبحَت الرؤى تتشكَّل أشدَّ وضوحاً، وتتوقُ الروحُ إلى تعاطي السعي لعرض أفكارٍ اكثر جرأة وموضوعية.. أطرحُ أفكاراً أتخيلُها تُمهِّد في حالِ تطبيقِها واستحالتِها واقعاً لحياةٍ رخيّةٍ ودافئةٍ وحميمية. حياةٌ يعيش فيها البشريُّ وقد تخلّى عن تعقيداتٍ كانت تُكبِّل مسارَه وتقيِّد خطاه.

وبقدرِ ما كنتُ سعيدةً لما تكتب وتطرح، واكثر سعادةً لما اتلمَّسه من تقبل قراء كانوا يزدادون اعجاباً بكَ وحَملاً لأفكارِك كنتُ حَذِرةً في ابداءِ اعجابي ومُقلِّلةً من مَنسوبِ دَهشتي لطرحِك الذي يضاهي طرحَ الفلاسفةِ العِظام.. وأشدُّ ما آلمني صراحتي بخوفٍ عليك من طروحاتك.

فليس من اليُسر تركُكَ تكتب بحريّةٍ، ولا بسهولةٍ السماحُ لآرائك أخذ طريقها الى عقول القراء. لأنَّ هناك التابواتُ والبرازخ، الرفضُ والكبح.. وهناك أيضاً الخِشْيةُ والتطيّر من ظهور عقلٍ يقود، ومصباح يُحمَل لإنارةِ الطريقِ نَحو جزيرةِ الخلاص من القَهرِ المتوارَث؛ ذلك المَحمول ثقلاً على كاهلِ كلِّ مَخلوقٍ يفتح عينه على هذه الأرض فلا يرى الخفّة التي يتمنى ولا الأمل الذي يرجو.

وكنتُ أنا أخشى...

كذلك كانت الحديقةُ التي كلَّمتني عن الياسمين مَرّةً ونطقَت عن جوى أعلمتني بتهجُّسِها من مناخٍ ساخنٍ مَجنون يلوحُ في المدى، وريحٍ سمومٍ حارقةٍ تُنذرُ بآلامٍ وأحزانٍ ومآسي جارحة.

وعندما غبتَ.. بل غُيِّبتَ أوجدَ فراقُكَ لي فراغاً هائلاً؛ وصارت الساعاتُ تئنُّ وئيدةً، والوقتُ برمِّته يمشي مُتحاملاً. فقط الأماكن هي مَن كانت تتعطّفُ عليَّ. تمنحني فُسحةَ الرجوعِ الى الوراء، فأجدها تبعث بما يُبدِّد بعضاً من التوتّرِ والقلق، مُعيدةً حواراً أشاهدُه يمشي في ممرات ظليلة كُنّا نقطعَها، وأشمُّ أريجَه على خدودِ الورودِ وصدورِ وريقاتِ الشجر.

أذكرُ وقفتَك وأنتَ ببيجامتِك السماوية المُخطَّطة طولياً

بالأزرقِ الداكِن تتطلّع من خلالِ نافذة الغرفةِ الى عصافيرَ كانت تضجُّ، تصنعُ جوّاً من الفعلِ الحيوي عُدتُ الى اوراقِك بعدما كتبت الكثير وكنتَ في ما كتبتَ سوداوياً شيئاً ما ترى الآمالَ بعيدةً، والسعادةَ نائيةً تبحثُ عن قرينتها الحرية، فدونتَ، وأنا اقرأ من وراء ظهرك ما سكبه قلمُك بحركةٍ سريعةٍ تنمُّ عن اعتلاجِ دواخلِك:

"مِن دونِ الأملِ تكونُ الحياةُ عقيمةً... مِن دونِ الأملِ ستجرُّ الأيامَ وراءَها غابةً من السوداويةِ والاكفهرار.. لا يمكن للعُتمةِ البقاء أبداً؛ فلا بدَّ للنور أنْ يأتي...اتيانُه يَحصل مَّما نكتبُ ونخلقُ، ندعو ونُحرِّض... إنَّ التحريضَ على مُحصِّلة مَجيءِ النور حَتماً سينُتجُ معادلةً ايجابيةً.. سيصنعُ أملاً سَرمدياً، يجعلُ الواحدَ منّا يُقرُّ بحتميةِ العَيش ايجابياً بعدما يتجرَّد مِن شرانقَ صنعَها بنفسِه؛ أعاقَته، وكبَّلَته، وتركتَه سَجين ذاته، وأسيرَ ما يَخشى مِن خيوطِ تينك الشرانق."

اليومُ في هذا الجو المُحمَّل بغيومٍ سوداء، وساعة كنتُ مَدفوعةً بشجَنِ التوجّه نحو حديقةِ لقاءاتِنا التي تكرَّرت هدرَت السماءُ، واشتعلت بروقٌ خلتُها تُمزِّق مَعاطفَ الغيوم وتنثرها أوصالاً على ايقاعِ رعودٍ لم تفتأ تتواصل، فتجعلني أشعر بالحنين الجارف لكلمات كنت تسكبها منغمة في مسمعي.. كلمات كانت بعذوبةِ رحيق أزهار، وبحلاوةِ عسلٍ

ملوكي.

احتميت بالشجرة التي لطالما جَلسنا في ظلّها، وأمطرت علينا من ورقِها الذهبي. ذلك الورق الذي كان بتحركِه يبعثُ حفيفاً مموسقاً تدفعُ به ريحٌ كنتَ تقولَ عنها: إنّها أنفاسُ اللّه تمرُّ على رموشِنا لتمنحنا حُلماً ورديا، تُعطّرُه أرائجُ أرواحٍ ملائكية.

إنّه المطرُ يتسلَّلُ من بين الاغصان، ويتساقطُ من أسطح الأوراقِ على الطاقيةِ الصوفية التي اعتمرها؛ ما يلبث أنْ يتدفَّق إلى معطفي الصوفي الأسود بياقته ذات الفراء الناعم الذي اهديتني إيّاه ونحنُ نحتفلُ سويَّةً بعيدِ ميلادي السابع والعشرين.

أفتحُ خزانةَ الملابس فأُخرجُ الحقيبةَ المُنمنمة مُستعيدةً ابتسامته المُحلّاة بالشوقِ والرغبةِ العارمةِ لاحتضاني، مثلما أذكرُ تلك اللهفة تتفاقمُ في عُجالةٍ لاحتضانه.

من الحقيبة أسحبُ حزمةَ الأوراقِ الزرقاء المَطوية بأصابعي المجنونة، وهي تتنافسُ كصغارٍ أغرقَهم الفضولُ للاكتشاف.

أعتلي السريرَ تاركة لظهري الاتكاء على الوسادةِ، أروحُ أفرد الاوراقَ لأقرأ قلبَه يُعلن تأثيرَ غيابي عليه، وفعلَ بعدِه عنّي. إذ لم يكتفِ حين قابلته لأولِّ مَرةٍ في مُعتقله الصحراوي بما قاله من شَجنٍ وشوقٍ إنّما سلَّمني تلك الحزمةَ لأقرأها حينَ أعود، وأعيش مع كلِّ كلمةٍ أو عبارة، مع البوح والافضاء،

مع ما يبغيه منّي وما أبغي منه.

كانت رسالةً تتناسل عن رسائلَ ضمنية واربت أمامي حياةَ الصمود التي لابدَّ أن أحياها دَعماً له، قائلاً: ستنتهي الصِّعاب حتماً، وسأعودُ إليكِ مؤكَّداً. ما عليك سوى طباعةِ هذه الرسالةِ بما احتوت. وفي زياراتكِ القادمة سأعطيكِ رسائلَ أخرى، عندما تجمعينها سويَّة ستكون فصلاً من مُذكَّرات احسبها ذات أهمية في قابلات الايام.

في احدى ثنايا الرسالة أعلمني عن حُلُمٍ مر به، وجدَ نفسَه خلاله في بناية بمثابةِ قَصر يشبه قصورَ نُبلاء أوربا، إلا أنّه كانَ فارغاً من الأثاث. فقط الستائرُ حريريةٌ وطويلةٌ تتدلّى سائبةً من أعلى النوافذِ الطولية التي يتجاوز طولُها الثلاث أمتار: "كانت النوافذُ للصالة التي أقفُ وسطَها غير مغلقة والهواءُ يدخلُ مُزمجراً فتخفقُ الستائرُ وتتلاطم كأنَّها في قلبِ ريحٍ عاصف. احاولُ تفادي الخَفقِ والزمجرةِ فأتَّخذُ السلَّم الرخامي الباهت الذي تتوسطه سجادةٌ مُزخرَفةٌ فيها صورُ أيائلٍ وزرافاتٍ وفيلةٍ تدوسُها أقدامُ الصاعدين أو الهابطين فتتلوّى أجسادُ المَخلوقات الغابيّة، فلا يُعيرُها احدٌ اهتماماً... في الطابق الاول الذي استقبلني كانت النوافذُ هي الأخرى مفتوحةً لكنَّ الستائرَ كانت في وضعِ الانسدال، فلا ريحٌ تأتي، ولا خَفقٌ يحدث. أمّا الأرضيةُ التي تمتدُّ إلى أمام

فمفروشةٌ بموكيتاتٍ خضراء مُخططة طولياً بالأبيض الثلجي والأصفر الذهبي. صفٌّ طويلٌ من أبوابِ غُرفٍ مُغلقةٍ، ساجيّة لامعة. هممتُ بفتح أقربَها إليَّ فاذا بي أقفُ أمامَ تفجُرِ ريحٍ هائلٍ وتيارٍ دفعَ بي الى الوراء فصرت اترنَّح، ما لبثت أنْ تهاويتُ أرضاً فأخذت بي الريح الى السُّلَّمِ فتدحرجتُ مثلَ كرةٍ يُلاحقها صوتٌ يُدوّي: لن تبلغَ مُناك.. أنا الريحُ، وأنتَ القِشَّة... انتَ لستَ سوى قشَّةٍ بمواجهةِ جبروتي.... فاستيقظتُ على هدهدةِ يَدِ سَجينٍ، كان فراشُه يجاورُ فراشي.. كان يقرأ في رواية "كانديد" للفرنسي فولتير عندما حَدَسَ أنَّني في كابوس ففضَّل عَدمَ تركي تحتَ سطوته. نهضَ ليملأ قدحَ ماءٍ باردٍ سكبَه من قِربةٍ نركنُها عندَ النافذة كي يضربها الهواء توخياً للبرودة."

*

تنقرُ أمُّ مُشرق على الباب؛ تدعوني للحضورِ إلى الصالةِ للتداولِ في أمرِ السَّفر.

تنزلُ ريم من غرفتِها لتشاركنا الحديث... فغداً تبدأ رحلةُ الحلم في لقاء مُشرق: من سامراء إلى بغداد؛ ومن بغداد إلى الديوانية؛ ومن الديوانية إلى السماوة.. "سيكونُ خروجُنا صباحاً قبل السادسة حتى نكون في بغداد عند السابعة والنصف أو أكثر بقليل؛ وبالضبط في كراج العلاوي. ومن

هنـــاك نركـــب ســـيارة الركـــاب الايطاليـــة OM، الضـــيقة والمُضــجِرة."، تقــول ذلــك، وتتضــافرُ علــى وجهِهــا علامــاتُ الامتعاض والتذمّر "لا اعـرف كيـف تتقبلُ النـاس مثل هـكـذا سيارة، وكيف سمِحت الحكومةُ لمثلِ هـذي السيارات في نقلِ الركـاب مسافات بعيدة." "، تصمت تاركـةً نظراتها للحقائب الـثلاث الكـبيرة الـتي اعـددناها للسـفر وهـي مَصـفوفة علـى جانبِ غرفتها، ثم تواصل:

"بعـون اللّه سـيكون وصـولُنا بعـدَ الظهـر... هـل احظـرتِ مَفاتيحَ البيت والغرف؛ لا تنسيها."

تخـاطبُني بشـيءٍ مـن الرَّجـاء المَغمـوس بالحنـان. فهـي تنظـرُ لـي كسَنَدٍ قويٍّ لمشرق، وداعمٍ متينٍ في مشـوارِ نضـاله. لم ترنـي يومـاً أُعلـن تـذمّراً منـه، ولا لومَـاً لسـلوك اختطَّـه فلـم يحيـا مثـل اقرانـه حيـاةً بسـيطةً ومتواضـعةً. ومـا افصـحتُ، حتـى مـرةً واحـدة، عـن ضَجرٍ ومَللٍ لبقـائي وحيـدةً بدونـه. بـل كـنـت أعلـنُ تفـاءلاً بيـومٍ قريبٍ يعودُ أكثرَ ثقةً بالنفس، وأشدَّ اصراراً على ما عَزِم عليه.

أُعلِمُها باحترامٍ ووداد أنْ كـلَّ شـيءٍ تمـام، فيـبرقُ في عينيهـا شعاعُ اليـاقوت، وتعلمـني سماحـةُ تقاسـيمِ وجهِهـا بشـكـرٍ دَفـين يَسـري في دمِهـا، وتـراقص رمـوش تفشـي سـرَّ اعتزازهـا بـي، زوجةً تواصلُ اخلاصَها ووفاءَها لزوجِها الذي ينصفها الـزمن في العيش مَعه فترةً طويلةً وترزق منه بولدٍ صالحٍ أو حفنةِ أولاد.

(٥)

ريـــم

كُرّاستي فمي...

سُطورُ أوراقِها تقولُ ما يَقولُه فَمي. فَميَ المُحقّق باستجابةٍ لما يريدُ العقلُ الافضاء به.

كُرّاستي لها امكانيةُ الاحتفاظِ بما تَجيشُ به النفس، وما يدورُ في حواري القلب؛ فالوقتُ سماء. يضمُّ تأوهاتِنا مثلما يجمع بوحَنا.. يختزن ألمَنا تماماً مثلما يدوُّن ساعاتِ سرورِنا على قلتها وانحسارها؛ فنحنٌ عائلةٌ كُتِبَ عليها أنْ تعاني لأنّها تغمسُ كفّها في نارِ الخَلق، وتجاهر بمناصرة فعلِ العقلِ وتغليبِ الحكمةِ بالثورة على كلِّ ما هو مُعيقٌ لحركةِ الوطنِ وأملِه في التساوي مع الأوطان الأخرى.

عُمري المقتربُ من الثانية والعشرين، وثقافةٌ جمعتُها من الدراسةِ الجامعيةِ والكتبِ المحتشدةِ على الرفوفِ في ميدانِ غرفةِ أخي مُشرق المعرفية جعلتني على مشارفَ تقييمٍ أراهُ ضرورياً ومُلِحاً: فيه العقلُ فاعلٌ، والعاطفةُ تزيّن نفسَها بالثوبِ الانساني المُعطَّر بمشاعرَ تتوخّى رسمَ العالمَ أنيقاً ورشيقاً.. لا

عواصف هوجاء عاتية تضربه ، ولا ريح سموم تطوّح به.

نشأتُ وأنا ألحظُ أمّي وأبي يجهدان في جعل مُشرق متميزاً بعدما اكتشفا فيه جزءً كبيراً من ذكاء أعمامي وأخوالي، ووجدا فيه ما يعوَّض خسارةَ العُمرِ الذي مرَّ وهما يفتقدان عِلماً لم يتلقياه في مدرسةٍ بحكمِ ثقلِ غطاءِ الجهلِ في قِدر المجتمع الذي يحتويهما ، ويحتوي شرائحَ كثيرةً صُوِّرَ لها العلمُ وحشاً يفترسُ براءةَ الانسانِ فيجعل منه مَخلوقاً مُتجرِّداً من الاخلاق، فاسقاً، منحطّاً، متهوِّراً، مَكروهاً.

أخذوه في ليلةٍ كان فيها القمرُ يختفي وراءَ غِلالة من سحاباتٍ كانت تمرّ وئيدةً، والفضاء تمر به أنسام تدفعها ريحٌ شرعت تتعالى وتُسرعُ مع تقادمِ انتصافِ الليل.. أخذوه بعدما دخلَ البيت، وكان على وشكِ خلعِ ملابسِه وارتداء بيجاما النوم وعَمل فنجانِ قهوةٍ اعتادَ اعدادَها بنفسِه، قبل أنْ يتمدَّد على السرير ويستند على وسادةٍ يجعلها في وضعٍ مُريحٍ ويشرع بقراءةٍ هادئةٍ لكتابٍ لم ينتهِ منه، يَسحبُه من منضدةِ القراءة.. أخذوه وسطَ خَوفِنا وتَهجُسِنا وتساؤل أبي عن سببِ استدعائه في وقتٍ متأخِّرٍ لا يشي إلّا بوضعٍ يثيرُ التوجّس، وقلقِ أمّي وهي تحاولُ جعلَ جسمِها عائقاً لمنعِ خروجِه بينما هو بكلِّ برودٍ وثقةٍ ورزانةٍ أثبتت لي تلك اللحظة وأنا ادقّق في قسماتِ وجهِه قوةَّ شَخصيته، وثباتَ عزمِه التفتَ الينا، مُحاولاً تهوين الأمر

وتبسيطِه، قائلاً:

"لا تقلقوا، لا شيءَ عندي يُثير الخشيةَ. سأعودُ إليكم.. اطمأنوا."

وخرجَ يبتسم لِمن صاحبوه إلى سيارةٍ مدنيةٍ زرقاء توقفت عند الرصيفِ القريب... شاهدناه يصعد بين اثنين، ثم تتحرك العربةُ وتتوارى في منعطفٍ بعيد.

تداولَ أبي وأمّي الأمرَ تهامساً، كما لو لم يرغبا في اعلامي، ثم رسيا على كلامٍ وجدتُ فيه قوةَ شكيمةِ أبي، وجَلد أمّي التي أربكَها خوفُ الأُمومةِ قليلاً؛ ما لبثت أنْ عادت لحالِها الاعتيادي.

دعوني إلى عدمِ القلقِ، وطلبوا أنْ أنامَ كَكلِّ يوم.

في الصباح ذهب أبي للاستفسار من أقربَ مركزٍ أمني فعرفَ أنّه وعددٌ ممّن يحترفون السياسة ويجاهرونَ بأفكارٍ تتعارضُ وافكارَ الحكومةِ قد اعتقلوا بنفسِ طريقةِ اعتقالِه.

عزا أبي وأمي سببَ الاعتقالِ إلى الكتبِ التي يقرأها، ويجاهر بمحتواها، ويكتب على منوالها، فازدادَ اهتمامهما به.

ذلك الاهتمام ولَّد في نفسي أيضاً اهتماماً يوازي اهتمامَهم فصرتُ اقتفي خطواته.

أدخلُ على غرفتِه فأسحبُ كتاباً من هذا الرفَّ، وآخرَ من

رفٍّ آخـر.. ألـتهمُ عسـلَ الأسـطر، وارتـوي مـن مـاءِ نمـيرِ الصفحات.. أردِّدُ جملةً كثيراً كان يردّدها، وأقرأها مَبثوثةً بين اسطر مقالاته ورؤاه: إنَّ الجَّمْالَ بِغيَتْي وَسَعيْي وَمَرامْي."؛ فـأروح أزيـد في المطالعـة بحثـاً عـن الجَّمـالِ المنتشـرِ في ريـاضِ الكتب.. أجمعُ ورودَه، وأرتشفُ رحيقَها.. أُمتِّع النظر بهيبته، وأُثني على كرمِه الطليق.

بعد زمن اكتشفتُ الكتبَ هذه تغيّر ناموسِ حياتي وتدفع بي إلى وعيٍّ ينأى بعيداً عن وعي الناس الذين يعيشونَ البساطةَ والنَّظرَ إلى الحياة على أنَّها نظامُ عيشٍ يومي، يضمُّ بين اسطرِه أعوامٌ يصرفُها الانسان مُسيَّراً. نظامٌ يمرُّ بمراحلَ عُمريّة تبدأ بطفولةٍ وتنتهي بشيخوخةٍ آيلةٍ الى موتٍ مُحتَّم.

هـذه الكتـبُ تصـنعُ لقارئِهـا عالَمـاً مـن الـوعي لا يمكـن تجاوزه. ومن هنا خشيتُ عليه، ووجدت أن طريقاً سلكه عبر جنبات كتبٍ قرأها وتشبَّع بها سوفَ تؤدي به إلى غابةٍ ستُظهِر لـه وحوشَـها في أيّـةِ لحظـةٍ ومـن وراء أيِّ جـذعِ شـجرةٍ.. وحـوشٌ فاتكةٌ وماردةٌ، عاشقةً للدم وغارقةً في الضغينة.

لذلك عندما اعتقل، وغيِّب لأيامٍ لم أفاجأ.

مـا فاجـأني عودتُـه إلى الكُتُـبِ نَفسِـها؛ يقرأُهـا ويزيـدُ مـن وقتٍ مطالعتها.. يقرأُها فيملأ صفحات كـرّاسٍ بما يتوهَّج في رأسِه من أفكارٍ تُشكِّل تواصلاً فكرياً لما ورد فيها.

لم يطلب منّا احراقَها كونَها دليلَ ادانةٍ ستتشبث بها السلطة فتزيد من محكوميته إنّما طالبنا بإبقاء الرفوف بما احتوت كما هي بين طيّاتها.. لذلك عندما تمَّ اقتحامَ البيت واستخرجت الكتب من رفوفِها اعترفَ ولم ينكِر وجودَها. قال انَّها كتبٌ تضمُّ شموعاً يُراد لها الاضاءةَ كي تنيرَ دربَ الانسانية الغارقَ بعضٌ من جغرافيته في العُتمة والجَّهل.

صلابتُه، وكبرياؤه، وتأكيدُه على أفكارٍ انسانيةٍ آمنَ بها وسعى إلى جَعلِها نَهجاً لإصلاح ما هو مُهشمٌّ استمرَّ لقرونٍ خلقت عندي، أنا أختُه التي تصغره، حالةً مِن رجحانِ كفَّةِ عقله، ونقاء نوايا، ونضالٍ يستحقُّ العواقبَ والتبعات المؤذية له.

"الفقر، يا ريم، آفةٌ تحرق آمالَ المسحوقين وتدفعَهم إلى اليأس. لذا علينا كَبحَ جِماحَه... علينا قطعَ دابر مسبِّبيه."

أرى في ما يقولُ الرأيّ السَّديد؛ لكنّي اعترِضُه:

"آفةٌ بحَق؛ لكن لا يقتصر وجودُها على بلادنا... أغلبُ أمَمِ الأرضِ تُعاني مِن وطءِ هذه الآفة."

أعجبتني عِطر بالتصاقِها به، واعجابِها حدّ الوله بما يَملكُ مِن ذَكاءٍ، وما يَطرح عليها من ولعٍ وولهٍ وحنين. فلقد هَمَّ بها طويلةً رشيقةً، جميلةً و فاتنة. وهمَّت به كاريزما كالقمر في نوره؛ واشراقةُ عينيه تُثيرُ الاهتمام... كانت في الصباحِ تَدرِسُ في كليّةِ العلوم وقد اختارت فرعَ الفيزياء؛ وفي المساءِ كانت

تتلقّى محاضرات فنيّة في مَعهد الفنونِ الجميلة؛ ما لبثت أنْ تركَتها لشعورها بضرورة توفير وقتها للبيت وشؤونه.

كنتُ مُعجبةً بها، ومُتَشَوِّقَة لأنْ اكونَ مثلَها شُعلةً متوهجةً من النشاطِ والفن.

لقد كانت تعشق الرَّسَم منذُ يَفاعتِها.. أصابعُها الملوَّنة تفضحُ عشقَها للألوان وتماهيها مع هذا الفنِّ الذي يُشكِّل بؤرةً من قِماشةٍ يُحيطها مربعٌ أو مستطيلٌ خشبي؛ اراها تعدّها بنفسها لتسكب عليها روحَها وتنثرها أشكالاً غارقةً في بحيرةِ الموضوعِ والبحثِ عن الهدفِ لدى الناظر... كانت تقول: "الألوانُ صانعةُ الجمال، وباعثةُ وهَج الأنوار؛ لولاها لكانت الطبيعةُ مُحايدة، والحياةُ لا تعدو حركةً آلية نعيشُ عليها وفيها كالأشباح."

في أغلب حواراتها مع مُشرق كانت لغةُ الألوانِ هي الأبجدية المُحبَّبة لديها؛ تقدِّمُه على الفيزياء تخصّصها الوظيفي.

وكان مُشرق بطولهِ المَمشوقِ الذي يزيد عليها بسنتيمترات عديدة وبشياكةٍ تبعث على الاعجاب يرى في ما تقول لوحات لونية مَقرونة بأنغامٍ صوتيةٍ تبثُّها حنجرتُها المُفعمةُ بموسيقى تنمُّ عن العذوبةِ مثلما يفعلُ تخصُّصُها العلمي في رصانتِها ويظهرها ذكيةً تمتطي فرسَ العلمِ باقتدارٍ يبعثُ على الاعجاب.

قلت له مرة "إنَّ عِطر هِبةٌ من السماءِ لكَ؛ ولَنا."

فقال وضحكةٌ تسبقُ الكلمات وتعرض بشرةَ وجههِ البيضاء المُشربة باللون المشمشي :" بل باقةٌ من الهبات.. ألا ترينَ الألوانَ تزيّن حياتي؛ وقلبي مثلُ عصفورٍ في روضٍ عاطر؟ ألا تجدينَ أنَّها توافقني في مَساري الفلسفي المتعامل مع العلمِ كأبجديةٍ في تفسيرِ الظواهر المُحيطةِ بنا؟... كلُّ ذلك أوجدته عِطر وصنعته لوحةً نادرةً تترجمُ انطباعاً باهراً... وأظنُّ أنَّ طمأنينةَ أبي وأمّي نابعةٌ من وجود عطر بيننا. "

وافقتُه بالرأي، وخصوصاً الجملةُ الأخيرة من كلامِه.

الجملةُ الأخيرةُ جعلتني استفيض في احترامي لها تماماً، مثلَ انطباعِ أبي وأمّي عنها

قلت له: "ما يُميز عطر أنّها تنظرُ اليكَ نصفَها الذي يُكمِّل كيانَها.. إنها ليست كالكثير من النساءِ مِمَّن يُرَوضنَ الازواج، ويجعلنهم أدوات طيّعةً لتحقيقِ رغباتهن ولو على حسابِ كرامتِهم."

كانت عِطر مُعجَبة؛ بل مُغرَمة بماري كاسات، كونها امرأةً تحدَّت سخرية أقرانها واتَّخذت الرسم درباً تسلكه في وقتٍ كان الفنُّ مثارَ سخريةٍ واستخفافٍ على المرأةِ، فممارستُه تقتصرُّ على الرجال... تحتفظُ بكتابٍ كبيرِ الحَجمِ من الورقِ الصقيلِ حوى رسوماتٌ مُلونةٌ لكاسات ولفنانينَ آخرينَ

عاصرتهم في النصفِ الثاني من القرنِ التاسعَ عشر.

لطالما عرضت عليَّ في لحظات فراغنا اسكجات لموضوعاتٍ قالت أنَّها ستنفذها في الوقت القريب، أغلبُها مستوحاةٌ من موضوعاتِ كاسات واهتماماتِها.

كانت تقول: "إنَّ كلَّ ما نراه يشكِّل في بدايةِ نظرنِا اليه صورةً، ما تلبث أنْ تترك في دواخلنا انطباعاً عنها، فيروحُ الواحدُ منّا التعبيرَ عنه بالوسيلةِ التي بيدِه... فالانطباعُ رؤيةٌ."

(٦)

صفحات من كرّاس ريم

كنّا تمنينا قضاءَ ذلكَ الصباح والنهارَ بأجمعِه في سفرةٍ سياحيةٍ عائليةٍ إلى بغداد كما يحصل لنا كلّ عامٍ حيث كان أبي يجمعنا في سيارةٍ يستأجرُها وينطلقُ بنا من سامراء: عائلةٌ مرحةٌ سعيدةٌ تتوخّى الفِرجةَ والمتعةَ... نصرف أولَ الصباحِ في زيارةٍ متنزهِ الزوراء حيث نقضي بعضَ الوقتِ في مشاهدةِ حديقةِ الحيوانات.. كان مُشرق يفضّل مشاهدةِ الأسودِ فنراها مُتمدِّدةً على ارضٍ اسمنتيةٍ صلبةٍ نائمة تحلُم بعودتِها إلى الاحراشِ والغاباتِ التي أُنتزِعَت منها سَجينةً في اقفاصٍ بعدما خدَّروها ونقلوها بطائرةٍ قَطعت الصحراءَ والبحر.. نشاهدُ النمورَ وهي خاملةٌ تتثاءبُ وعيونُها الخرزية تستديرُ تتابع مَن يشاهدها من وراءِ سياجٍ حديدي مُحكم.. يقول أبي: "انظروا اليها أتخيّلها تترجّى منا مَدَّ يدِ العونِ لها لننقذَها ونُنهي معاناةً يوميةً تعيشها".

تثيرني الأنواع المتفاوتة من القِرَدة بأحجامِها واشكالِها، بحركتِها البهلوانية وقفزاتِها الباعثة على الضحك.. نطالعُ الزَّرافةَ بعنقِها الطويل ورأسِها المستدق وهي تنقلُ سيقانَها

الطويلة متحركة صوبَ شجرةٍ تجرَّدَت اغصانُها العالية من الأوراق وفهمنا أنَّ الزرافةَ نفسَها قضمتها، وتنظرُ لشجرةٍ مَنعها السياجُ المعدني من ادراكَها... يشير لنا أحدُ المتنزهين مع عائلته بإشارة إلى أقفاصِ الطيور عند الجانب الشمالي من المتنزه فنتَّجهُ إلى المكان الذي يُبهرنا، إذ نرى طيوراً لم نشاهدها من قبل: هداهدٌ، لقالقٌ، طيورُ حب، طيورُ الكناري، نقّار الخشب.. نقارُ الخشب رأيناه يحفر بمنقارِه الحادِّ والمستدق جذعَ شجرة سدرٍ فنسمع تلك النقرات السريعة فنعجب لأداءٍ يوقعنا في دهشةٍ تكبرُ في نفوسنا، وتتعاظم عن اعجابٍ آخر عندما نشاهد الطاووس يتخايل أمامَ انثاه فيخفقُ بجناحيه ثم يفرش ذيلَه وقد تلاصفت الالوانُ زرقاءَ وسوداءَ وشذريةً بدوائرٍ وذؤابات.

يقول أبي: "انظروا فاشبعوا نظركم فهو لا يفرش هذا الذيل الساحر دائماً.. إنه يفعل ذلك ليتخايل أمام انثاه كي يثير اعجابها."

يقولُ هذا، ثم يطلقُ حَسرةً. وعندما يرى استغرابنا لما فعل، يقول: "ما أقسى الانسان إذا تحكم، وما أشدَّ وحشيته إذا تجبر !!" يقول ذلك وعيناه تمسحان وجودَ الحيوانات السجينة.

هذا الصباح اختلفَ... نحنُ في سيارةٍ باص خشبي.

لم تمضِ غيرُ ساعةٍ ونصف حتى ترجَّلنا منه لحظة دخلنا

الكراج الذي كانت اصواتُ سائقي المَركبات ترتفعُ بأسماء المدن التي يتوجَّهون اليها... ولم يسع أمّي سوى الحركة المُسرعة باتجاه الجانب البعيد من الكراج حيث سيارات الـ OM الحليبية اللون تقف في طابور.

سَعُد السائقُ ذو الدشداشة الرصاصية والعقال واليشماغ وهو يطالعُنا نتحرك باتجاهِه... راح يردد: ديوانية.. ديوانية.

وإذ ادرك أننا نريد الديوانية هرع لباب مركبته يشرعها مع أنها كانت مشرعة أصلاً والركاب في الداخل ينتظرون اكتمال ملئ المقاعد:

"انتنَّ ثلاثة، لكُنَّ هذه الكراسي المتجاورة."

ثم بارتياح وقف في مقدمة مركبته؛ رافعاً صوته: نَفَر واحد.. ديوانية.

ولم تمر دقائق الا والمركبة بكراسيها الضيّقة وركابها المحشورين كالفراخ تخلّف الكراجَ وتروح تلتهمُ الطريقَ باتجاهِ الجنوب.

خرجنا من بغداد يلوحُ لنا من بعيد عمودُ الدخان المتصاعد من برج مَصفى الدورة، وقطعنا ثلاث ساعات من طريق مُعبَّدٍ وإن كان كثيرَ العثرات والمَطبات لندخل مدينة الديوانية.

في الديوانية وجدنا سيارات مرسيدس تسع ١٨ راكباً تقلُّ الركّاب لمدينة السماوة؛ القضاء التابع للواء الديوانية.

كنّا مرهقات من الطريق المُسفلت السابق، فإذا بنا ندخلُ طريقاً ترابياً كثيرَ العثرات والمطبات والمسافات الترابية الطحينية التي يُثار فيها الغبار فيتعالى مثلَ عاصفةٍ تهاجمُ نوافذَ المركبة الزجاجية وتنفذ من الفتحات والشقوق، فيشيع في الداخل ويتسبب بتجشئات وعطاس أغلب الركاب.. لا اثر للإسفلت فيه، ولا محاولات لتعديل الطريق وتسويته من قبل الجهات المسؤولة.

قالت أمّي هامسةً: سنصرف ما يزيد على الساعة والنصف من العذاب حتى نصل السماوة.

وكان ما نطقت به صحيحاً.

كان الطريقُ عثِراً، ومرهِقاً، وشاقّاً... مررنا على بلدةِ الحمزة الشرقي، ثم بلدة الرميثة قبل وصولنا إلى السماوة.

وصلنا بعد عَناء ثقيل... اكتشفنا أننا صرفنا نهاراً كاملاً؛ والشمسُ على وشكِ المَغيب.

أولَ مَن استقبلَنا حين دخولنا كان الفرات.. رفعَ كفّاً يحيينا.

تحيته وهو مستلقٍ بين ضفتين خضراوين واشجار تتزاحم بكثافتها المُلفِتةِ نثرَ في فضاءِ نفوسنا رحيقَ طمأنينةِ الوصول، وشعورَ أنَّ الماءَ مَصدرُ غَسلِ الروح وتعميدها من أدرانِ القلَقِ والضّيق، والكَمَد.

تلك الليلةٌ استحالت امرأةً استقبلتنا بحنانِها الربيعي.

كانت ليلةَ المثولِ أمامَ القدر، وتسجيلِ الحضورِ في سِجل هذه المدينة التي مِنها تبدأ رحلةُ الترحالِ الى عمقِ الصحراء.. الصحراءُ التي جعلت السلطات احدى بقاعِها بؤرةَ مَنفى وسجناً؛ إن تجرّأ السجينُ على تجاوزِ أسوارِه الحجرية تاهَ في تضاريسِ الشِّعاب ثم غَرِق في بحرِ الرمال واندثر، أو هام يضرب في اللاهدى يَحدوه أملٌ لا يدري أنُّه أملٌ مُميت، وبالتالي يكون وجبةً سائغةً لذئابٍ جائعةٍ تَتحينُ الانقضاضَ على ما تحسبه غزالاً، أو أرنباً، أو طيراً كُسرت جناحاه وبات غيرَ قادرٍ على الطيرانِ والنجاة.

تلك الليلة كان البيتُ الذي بغرفتين وحوشٍ منفتحٍ على السماءِ في زقاقٍ يُطلقُ عليه زقاقُ بيتِ العمّة مضيافٌ ينثرُ مطرَ طمأنينتِه على يبابِ نفوسِنا، نحن المخلوقات الثلاث اللائي يعانينَ ظمأَ الاشتياق، ويشتكينَ جوعَ اللقاء. فقد مرَّت ثلاثةَ أشهرٍ استحالت في نفوسِنا الملتاعة عاماً وأكثر.. نُمنّي القلبَ بحلُم بالوصولِ إلى هنا كي نُكمِلَ مَسارَ الخطوِ باتجاهِ الصحراء.

إنَّها الزيارةُ الثالثةُ لأمي، والثانية لعطر، والأولى لي.

الزيارةُ الأولى تمَّت بسَفَرِ أبي وأمّي من سامراء وهما في قَلقٍ مِن المجهول، وقطعِ مُدنٍ لم يَمُرّا بها، ولم يَسمعا ببعضِها مِن

قَبل. ثم تخيُّل قطعِ الصحراء والوصولِ إلى سجنٍ هو المَنفى القاهرُ لكلِّ انسان.

زيارتُهما الأولى توجَّها إلى فندقٍ لينزلا فيه فما كانَ من صاحبِ الفندق إلّا أن اصطحبهما إلى بيته وقضيا الليلَ مع أفرادِ عائلته، وقد تلقَّيا ضيافةً حاتميّة. يُسمِعهُما الرجلُ طيبُ القول: انتما ضيوفُنا الأعزاء. الفنادق هنا مُكرَّسة للغرباء العزّاب والموظفين المنقولين من مُدنٍ بعيدةٍ كعقوبةٍ لهم على اتّهامات لا نعرف صحتَها من عدمِها. أما العائلات فبيوتُنا مفتوحةٌ على الدوام لهم.

وكان أنْ قضيا ليلتين قبل أن يدلّهما على الكراج والسيارات المُخصصة للنقل إلى البادية، وقضاء السلمان الذي يحوي السجنَ الصحراوي، وجلُّ نزلائه من السياسيين وأصحابِ الفكر. وكان أخي مُشرق من ضمنهم.

وحينما عادا بعد يومٍ وليلةٍ من لقائِه ضيَّفهُما الرجلُ ليلةً ثالثة. وفي الصباح وجَّههما إلى مكتب عقارات قادهما صاحبُه إلى بيتٍ في زقاقٍ يطلقون عليه زقاقُ بيتِ العمّه، مُشيراً بنصيحةٍ خالصةٍ على أنّه أفضلُ بيتٍ يمكن له استئجاره والسكن فيه بطمأنينةٍ وبسلام.. ولقد تمَّ ذلك انطلاقاً من اعتباره مُستَقرَّاً لنا عندما نأتي في زياراتٍ قادمة.

الزيارةُ الثانيةُ كانت بعدَ ثلاثةِ أشهر. كان فيها أبّي وأمّي

وعِطر. نزلوا في البيت المُستَأجَر... ليلتُها وفَّرَت لَهم المؤجِّرة أفرشةً كي يقضونَ ليلتَهم لأنَّ الوصولَ كان مُتأخراً... وفي الصباح خرجوا إلى سوق المدينة فابتاعوا ما يحتاجون للسكن وطهي الطعام.

أمّا الزيارةُ الثالثةُ فكنتُ أنا بديلاً لأبّي في الزيارةِ لأنَّ أبّي توفي بعد زيارته الثانية. توفي بجلطة قاتلةٍ ضربت قلبه بعد تجاوزِه لأربعَ جلطاتٍ مُتفاوتةِ القُوّة تركتنا نُعلن حزنَنا الكظيم، وتركت مُشرق يتأسَّى ويتألَم. تمنَّى لو كان هو مَن يهيلُ التراب على قبره، لكنَّه السجنُ، والنفيُ، والعسَفُ.

أحسنت المؤجرة استقبالنا وقدَّمت العشاءَ اللائقَ والشايَ المُزيلَ لصداعِ السفر الطويل؛ قائلةً بشيءٍ من الترحاب المعجون بالارتياح كوننا نساءً مستأجِرات: إنَّ قدَرَ هذا البيت أنْ يكون مأوى للنساء، يستأجرنه فيجدن فيه الاستقرار؛ ويُستقبَلنَ من جيرانٍ لا يُعرفن منهم إلا الترحاب وحسن العُشرة. ومع الكلام والترحاب دعوةٌ للسماء لتحقيق اطلاق سراح سجيننا.

ولقد أعلمها صاحب مكتب العقار أنَّنا سنتخذ من البيت مثابةً للانطلاق الى الصحراء؛ فلنا سجينُ رأيٍّ جيءَ به رفقةَ مجموعة سجناء، وإننا سنستأجره لحين اطلاق سراحه؛ وما نزولُنا فيه سوى أيامٍ نقضيها ثم نعود الى بلدتنا سامراء.

(٧)

السوق والبيت

في الصباح كان سوقُ السماوةِ المُسقَّفِ يستقبلهن.

نسوةٌ ثلاث يتحدَّثنَ بلهجةٍ تختلفُ عن لَهجةِ سكانِ المدينةِ ما يَجعل العيون تتابعهنَّ بفضولٍ، يعقبُه ترحابٌ، مُعلنةً عن الاستعداد لتقديمِ أيَّةِ خدمةٍ يرتئينها، فهنَّ ضيفاتٌ مُرحَّب بهنَّ أينما

توجَّهن.

في جولتهن التي أخذَت الصباحَ بطولِه اشترين قُدوراً وصُحوناً ومُتعلقاتِ طبخ... اشترين طبّاخاً نفطياً بثلاثِ عيون، واستعنَّ بصبيّ من صبيانٍ يقدمون خدماتِهم للمتسوقين مُقابلَ أجرٍ مناسبٍ يُعينونَ به عائلاتٍ في مواجهةِ مُتطلباتِ الحياة.

مِن سوقِ الخضار؛ وسوقِ القصابين اشترين خضاراً ولَحماً لعملِ وجبةِ طعامٍ كبيرةٍ وكثيرةٍ وسَخيَّةٍ سيحملنها مَعهن في صباحِ اليوم التالي في مُهمَّتهن الصحراوية حيث السجناءُ سيُسعَدون لرؤيةِ طعامٍ اعدَّته الأمُّ أو الأختُ أو الزوجة... إنَّها الوجبةُ التي يفتقدون، ونوعُ الأكل الذي يتمنون. فهُمُ في رغبةٍ جامِحة وتطلّعٍ يكبرُ ويتَّسِعُ معَ كلِّ يومٍ يمرُّ لشمِّ بُخار يتعالى

من قِدرٍ وضِع على نارٍ تتابعُها عينُ عزيزٍ يسعى لإشباع ذائقةِ شخصٍ حَميم: ابنٌ، أو أخٌ، أو زوجٌ. فالسجناءُ في شوقٍ لصحنٍ يُقدَّم اليهم أكلاً أُعِدَّ في البيت، في مَطبخٍ فيه انفاسُ العائلةِ الحَميمةِ.

كان سوقُ السماوةِ يعجُّ بالمتسوقين؛ والهواءُ الذي تشيعُ فيه رطوبةٌ تحكي مَطراً هطلَ قبلَ يومين فأغدقَ على المدينةِ جوّاً مِن الشعورِ بأنَّ الربيع بطابعِه وهويتِه عادةً ما يكون رَحيماً، خُصوصاً عندما يحين بعدَ شتاءٍ قارسٍ وقاسٍ يضربُ البلادَ جميعاً... ربيعٌ كان بادرةَ تفاؤلٍ، وحسنَ صنيع.. نهارهُ يرينه لافتةَ بُشرى تقولُ الأملَ؛ وبِلَيلِه يعشنَ السَّمَر الحَميم، وقد كَحَّلنَ العيونَ بمرأى مَن قَصَدْنَ مواجهتَه ليشبعن من مشاهدتِه، ويرتوينَ من طيب حديثهنَّ معه.

لفتَ انتباه أم مُشرق خَطفَ عددٍ من طيورِ سنونو في فضاءِ السّوق الغارقِ في فَيءٍ رطبٍ وقد نفذت اليه من ثقوبِ في السَّقفِ المعدني أعمدةٌ ضوئيةٌ تصدمُها طيورُ السنونو بأجسامِها المغزلية فيلتمع لونيها الاسودُ والابيض، وتبانُ ذيولُها مِقَصيَّةً.

انتبهت أمُّ مُشرِق إليها تتَّخذُ اعشاشاً مِن طينٍ في الحوافِّ العُليا لمظلاتِ الدكاكين الجّصيّة فتذكَّرت أنَّها مُهاجرةٌ من أماكنَ بعيدةٍ، ستبيضُ هنا وتُفرِّخ ثم تعودُ إلى موطنِها

الأصلي، فأطلقت زفرةً حرَّى، مُتَمتِمةً بقلبٍ يتضرع: متى يَعودُ مُشرِق إلى سامراء؟ متى تَعود اغنيةُ الفرحِ إلى حوشِ الدار، ونعيشُ على نغمِ وجودِ مُشرٌ بيننا؟...

أرسلت نظرةً أخيرةً على الطيورِ المُتخاطِفة، وعلى الأعشاشِ الطينية، وعلى أعمدةِ الشمس تنثر بهاءَ الضَّوءِ قبلَ أنْ تعلنَ لعطر وريم اكتفاءهنَّ من شراءِ المواد.

خرجنَ من السّوق.. ودخلنَ ميدانَ الشمس في شارعِ باتا.

وكان عليهنَّ السَّيرَ على الرصيفِ وقطعهنَّ ما يربو على المائةِ متر قبل أنْ يدخلنَ الزقاق الذي يقود إلى أزقةٍ متداخلةٍ تنتهي بزقاقِ بيتِ العمّة.

هناك هرعَ عددٌ من الصِّبيّة يحملونَ ما تسوقنَ من خضار ولحم وفاكهة وبهارات ومتعلقات الطبخ قصدَ المساعدة؛ فقد اعتادوا تقديمَ العون لَمن كُنَّ يستأجرنَ البيت. وهو سلوكٌ تعلَّموه من امهاتِهم وآبائِهم وهم يحثّونَهم على مساعدةِ أيِّ مُستأجرٍ.

تديرُ عطر مفتاحَ الباب وتشرعه؛ وتطلبُ أمُّ مُشرق من الصِّبية الدخولَ ووضع ما يحملون في زاويةِ البيت، قريباً من الحوضِ الاسمنتي؛ ثم تُقدِّم لهم حلوى ابتاعتها من السوقِ بناءً على ما سمِعت من المؤجّرة أنَّ اغلبَ مَن استأجرن البيت اتخذن تقديمَ الهدايا كسلوكٍ ينمُّ عن الحنانِ والامتنان فيما تبرق

عيون الصبايا وهنّ يقفن من وراء نوافذ بيوتهن، يُطالعنَ بقلوبٍ ملآى بالتواد قوامَ المستأجرات اثناءَ توجّههنَّ للبيت.

إنه التعاطفُ الذي لا يَنجلي عن نفوسِهن التائقةِ الى الوقوفِ مع أناسٍ اضطرَّتهم الظروفُ إلى المَجيء مِن مدنٍ بَعيدةٍ لغرضٍ انساني نبيل.

في ساعةِ زيارةِ محادثةٍ وخلقِ موَدَّةٍ دخلت عليهنَّ المؤجِّرة تنثرُ على رؤوسِهنَ مطرَ الترحاب، وتبثُّ من حدقتي عينيها بَريقَ المودَّة، وصِدقَ الكَلام... وكنَّ قبل حضورِها صرَفن وقت ما بعد العشاءِ في تجوالٍ قطعنَ فيه عَدداً من شوارع السماوة واستقبلهنَّ شارعَ الكورنيش في ليلةٍ تحتفي ببهاءِ هواءٍ مُنعشٍ تأملنَه فاتحةَ تفاؤلٍ لرحلةٍ ستنتهي بلقاءِ عزيزٍ مُرتَقبٍ عُدنَ إلى البيت.. تركنَ وراءهنَّ الفراتَ الذي كانَ على مَوعدٍ مع مياهٍ ستأتي هادرةً مِن منابعه بعد أنْ تذوب الثلوجُ وتندفع عبر النهر قاطعةً هِضاباً وبواديَ، مَسالك ومُنحدرات.. الفراتُ هذا حَسبنَه أعلنَ ترحابَه بهنَّ من خلال تلألئ مصابيحَ الكازينوهات المُمتدَّة على ضفافِه، ورؤيتهن لمجاميع أشباح شبابٍ على شريطٍ رملي، في عتمةٍ، يتناثرون جماعاتٍ يُفضّلون الخِلوةَ، ويشعرون بهناءٍ تنتجُه حميميةُ اللقاء.

بطيبِها المعهود وحسنِ تعاملِها مع المستأجرين راحت تحدثهنّ عن حبِّها لمَن يستأجر بيتها... تَرى بالمستأجرين وجلّهم من

النساءِ أخواتاً لها وبنات، فلا تسعى لطمعٍ، ولا تبغي الاستغلال... تراهنَّ مخلوقات يتطلَّبنَ رعايةً مُضاعفة، وحسنَ استقبالٍ مميَّز. فهنَّ صاحباتُ حاجةٍ، ولديهن قضايا وأسرار. من هُنا تستدعيها الانسانيةُ الوقوفَ إلى جانبهن وتيسير أمورٍ قد يكنَّ غير قادرات على انجازِها وحيازتها... ويومَ يُغادرُ المستأجِرُ ويسلِّمُها مفتاحَ البيت يُغادر وفي قلبِه امتنانٌ، وفي ذاكرتِه صورةٌ مُبهرةٌ للجيرةِ الصادقة.. يُغادر وقد حَملَ مَعه حقيبةً ملآى بطيبِ الصنيع، ورقَّةِ الفعل؛ مِنها ومِن الجيران.

ولقد كانت ليلةَ الاحاديثِ المتواليةِ والسَّمرِ المُستطاب.

أحاديثٌ دفعت إلى الوراءِ بالقلقِ الذي يساورُ أيَّ مَخلوقٍ عندما يكون على مَوعدٍ مصيري يخشى لحينِ تَحقّقه سَيلاً من الهواجسِ.. فمِن جانبها تحدَّثت المرأة المستأجِرةُ عن السماوةِ كمدينة شاءت الاقدارُ جعلها على كتفِ صحراءٍ مترامية، وشاءَ الحظ لأهلِها أن يكونوا كُرماء مُضيافين، يُيَسِّرونَ لمن زارَهم الأمورَ، ويُذلِّلونَ صِّعاباً يخشاها القادِمون.

ومن جانبِها أيَّدت أمُّ مُشرق ما فاهت به المرأةُ، مُعلنةً ثناءً لكلِّ مَن التقتهم، ومن تعاملت معهم... قالت أنَّ مَن ينطق اسمَ السماوةِ يستعيدَ تلك الوقفةُ البطوليةُ لأهلِها مع قطارِ الموت الذي كان يحمل في قاطراتِه الحديدية التي كالزنازين، قبلَ أعوامٍ، سُجناء رأيٍ ومناضلينَ أُريد لهم أنْ يلفظوا انفاسَهم

داخـل تلـك القـاطرات، وكيـف هبّـوا لنجـدتهم والوقـوف إلى جانبهم فانقذوهم من موتٍ مُحقَّقٍ.

(٨)

الرحلةُ.. والهاجس

كان مطرُ نيسانِ البارد يَهطلُ بغزارةٍ، والليلُ في ابتداءاته.. شوارعُ السماوة تتلقَّى انفجاراتُ الرَّعدِ بعد وميضٍ يضيءُ حوشَ الدار ويقتحمُ الغرفةَ التي تجمعُ النُّسوةَ الثلاث... كان مِن المُقرَّر نهوضهنَّ صباحاً والتوجّه الى الصّريفة المَعمولة من عيدان القَصبِ والتي يُطلق عليها تجاوزاً " الكراج "، وهي تجاورُ ثكنةَ شرطةِ الخيّالة، وأمامَها شمالاً مدٌّ من أرضٍ منفتحةٍ جرداءَ تنتشرُ على تربتِها نباتاتُ العاقول ذات الاوراقِ الأُبرية الحادَّة، وعددٌ من جِمالٍ يمكن رؤيتها سائحةً تقلع ذلك العاقول الابري وتلتهمه بشفاهِها الضَّخمةِ قريباً من ساقيةٍ يركدُ فيها ماءٌ أخضر.. ساقية لها ارتباطٌ مع الفرات وإنْ كانَ بعيداً، تأتي عبرَ بساتينِ نخيلٍ تتكدَّس حولَ المدينة.

من ذلك المكانِ البائسِ تنطلقُ سياراتُ الفورد الخَضراء بأحواضِها الواسعة وسقوفِها الكتانيّة السميكةِ نحو "ناحيةِ السلمان"، تلكَ النقطةُ الباهِتةُ اللونِ وسطَ كَونٍ أصفر. ففي الاسبوعِ ثلاثُ سفراتٍ موزَّعةٍ على الأحد، والثلاثاء والخميس، والعودة تكونُ الاثنين والاربعاء والجمعة.

مُعظمُ الذين يسافرون هُم مِن ذوي السُّجناء المرميين في سِجن نقرة السلمان كسجناءِ رأيٍ لا دعوى عليهم ولا أحكام، إنَّما هُم في طوقِ الاعتقالِ الكيفي والحَجز الذي لا مُدة زمنية له. قلّةٌ من سكنةِ الناحية يشكّلون الركاب. وهناك مِمَّن يُسافرون إلى واحة "بصيّة" الواقعة عند الحدود السعودية، والتي تضمُّ دكاكينَ مَعدودةً للتبضّع بالشاي والسكّر والقهوة واحتياجات البدو الرُّحَل من قِربٍ مطاطيةٍ ومساميرَ واعمدةٍ خشبيةٍ لتثبيت الخيم... بين السلمان وبصية تمتدُّ الصحراء واسعةً وعصيّةً على مَن لم يدركها ولم يتقن مَعرفةَ أهوائِها المُتقلبة. فالصحراءُ كالجنيّةِ اللَعوب.. تحسبها مِغناجاً تهبكَ المِتعةَ وهي البخيلةُ المنكمشةُ اليَد.. تأتمنُها رفيقةَ دربٍ فإذا هي غادرةٌ جاحدةٌ، تتنكَّرُ لكَ في أيِّما لحظةٍ.. وفي أيِّما لحظةٍ تأتيكَ ضاحِكةً، تفرشُ أمامَك بِساطاً أخضر زاهياً لا انتهاءَ له، وتمدُّ كفَّها وقد امتلأت بفيوضِ الماءِ العَذب آتٍ مِمّا تجودُ به السماءُ بعد زَبَدٍ ورُعود.

وهي هنا اليومَ تُعلِنُ بُشرَها وعذوبَتها.. تُعلِنُ استقبالَها للزائراتِ الثلاث، بائحةً برفقِها وحنانِها.. تقولُ السعادةَ، وتكتبُ الوعودَ الجميلة.. تلَوِّح بتفاؤلِها لَهن، فتُريهنَّ مُشرق مُبتسِماً، كفاتحةٍ لسرورٍ متبادلٍ بينَه وبينهنَّ.

"نحنُ لك، يا أخي.. لقد أخذَّ منّا الاشتياقُ لكَ مأخذاً."

تتمتمُ ريم في مَشهد تخيلّها واقفاً، منتظراً عندَ بابِ السّجنِ الرئيسيةِ وقد أفردَ الذراعين ترحاباً.

أمّا عطر فتستعيدُ لقاءَها به في المُقابلةِ السابقةِ.. ادهشَها أنَّه يتحلّى بالصمتِ. إذْ كان في صمتِه كَمثلِ ما كانت تراه يتحدّث: وديعاً، رقيقاً، مُبتسماً.. سألَها إنْ كانت تتَجمَّل بصبرٍ توخاه يَعجُّ في قلبها، وإنْ كانت روحُها في تَقبُّلٍ للفراق.. فردَّت عليه بما يَعني الثباتَ والصمودَ، بما يُترجِم الوقوفَ إلى جانبه حتى لو تطلَّب الفراقُ أعواماً.

قُبيلَ الساعةِ الثامنةِ بقليل، والمَطرُ لَمَّا يَزل يتساقط كثيفاً طُرِقَت الباب.. تحرَّكت أمُّ مُشرق فسحبت مزلاجَ البابِ الرئيس، فكشفَ المصباحُ الأصفر ذو الستين فولت المنصوبُ فوقَ البابِ سائقَ عربةِ الفورد الذي من المُقرَّر الشروع بالرِّحلةِ في اليومِ التالي يقفُ وسطَ الزقاق.

بعد القاءِ التحية والاعتذار لحضورِه دونَ موعدٍ، قال:

"يا أمَّ مُشرق؛ إذا استمرَ المَطرُ غداً صباحاً ستتأجلُ الرحلةَ إلى اليوم الذي بعده، وإذا توقف فستبقى بموعدِها."

هي السماءُ مَن تقرر، وهو المطرُ بقدرِ ما يُحسَبُ خيراً ورحمةً للعالمين وللأرض التائقة للرّواء فهو في بعضِ الاحيان جدارٌ مهيمنٌ ومعيقٌ يمنعُ الروحَ من لقاءٍ ترقَّبته طويلاً وخطَّطت له ورسمت مشاهدَ منفتحةً على البهاء.. وهي الأقدارُ كثيراً ما

تـتحكَّم بمصـائرَ البشـرِ فإمّـا أنْ تهـبَهم مـا لم يتوقَّعـوه فينشـرحون ويسـعدون وإمَّا أنْ تَسـلُبَ منهم حُلماً أو سـيلاً من الأحلام العِذاب نسجوها في مُخيلتِهم، مَصحوبةً بتحقيقِ هَناءٍ يهبُهم طمأنينةً، وتفاؤلاً، وانسجاما.

ولم تذُق أمُّ مُشرق طيلةَ الليلتين السابقتين طَعماً للنوم. لذا صرفت بعدما سمعت كلامَ السائقِ وتخميناته ساعاتِ الليلِ تفكّر، وتَتَضرَّع.. ترسمُ سيناريو اللقاء، ومعه تَهجَس من وقوعِ ما لم يُحسَب... وكانت عطر تتولّى تهدئَتها، مُحاولةً خلقَ أجواءٍ مِن الثّقَة بمسارٍ يسيرٍ وسهلٍ، مؤكدةً، وإن كانت هي أشدَّ قَلَقاً، أنْ لا عائقَ يعيقُ رحلةَ اللقاء:

"أنا متأكدة سنبدأ الرحلة غداً.. إنّها امطارٌ شمالية؛ غيومُها ترمي ما تحمل وتتبدد سريعاً.

ستشرقُ الشمسُ غداً، وسنبدأ مشوارَنا."

في صباحِ اليومِ التالي نهضنَ على شمسٍ باهرَةٍ أبعدت ضباباً كان يحجُب رؤيةَ الدرابزين وما وراءه من جدرانِ اسطح البيوتِ المجاورة. وقفنَ عندَ نهارٍ ربيعي تنافذَ لذراتِ هوائِه عبيرُ رطوبةٍ باردةٍ منعشة.

ما أن همّت عطر بإعداد الفُطور المكوَّن من قيمر سماوي اشترياه من بائعة قيمر سمعاها في الزقاق وبيض دجاج مَحلّي اشترياه أمس، وتوجَّهت ريم لتهيئةِ أقداحِ الشاي وجلسن

ليضعنَ أولَ لقمةٍ في افواهِهنَّ حتى طُرِقت الباب، فنهضت أم شرق وهي تتمتم بدعاء أنْ يكونَ الطارئُ حاملَ بُشرى.

وكان مساعدُ السائق.

أعلمها بضرورة الحضور الى الكراج بعد نصفِ ساعة. إذ ستبدأ الحركةُ عند الساعة الثامنة.

طلبت منه الانتظارَ واستدارت تَستعجِل ريم بوضعِ كميةً من القيمر في جوف الصمونه. وهرعت اليه:

"خذ بعضَ فطورِنا على بشارتِك."

ابتسم سعيداً وهو يمدُّ يدَه لاستلامِها.

(٩)

الانطلاق

حين يتفاقمُ الشَّوقُ الأخضرُ في القَلبِ ويتعالى أوارُ مَرجلِ الاعماقِ يغدو الوقتُ رَماديا ثقيلاً؛ والتضرّع إلى السماءِ في الاسراعِ والانصرافِ الحَثيث من نافلةِ الرَّجاء المَرفوض، أو الكلام الذي لا يلاقى إلا باللامبالاة والوصول الى الفَشل والاخفاق؛ ذلك أنَّ القلقَ، في مواقف يكون فيها التهجُّس والتوفّز غولين يعلنان هيمنتَهما، لا يمكن تجاوزه. وليس بالمَقدورِ تداركَ المواقف الملغَّمَةِ بالمفاجآت. فالقلقُ مُهيمنةٌ وجوديةٌ، انبثقَ مِن لحظةِ دخلَ الانسان ميدانَ وعيٍ يساور حركتَه، وسيرَه، وعيشَه اليومي، ومُحيط كلُّ ما فيه مُبهم، وعصيٌّ، ومجهول.

"إنَّ القلقَ لوحشٌ فتّاك!".. كانت عِطرُ تسمع مُشرق يردد هذه الجملة المُحمَّلة بالخشية والخوف كلَّما شرعَ بقراءةِ ما كتبَ وجاءَ ليعيد قراءتَه للتأكّد من صلاحيتِه للقراءةِ والفَهمِ مِن قبل القرّاء.

إنَّ عطر الآن تقلقُ من أنْ يفاجئهنَّ القَدَر بما لا لم يَحسبن. فالأمرُ ليسَ بيدهنَّ. وسلطاتُ السّجنِ كلّ يومٍ لها رأيٌ تنَفِذُه

بنـاءٌ علـى أوامـرَ مركزيـةٍ تتلقّاهـا مـن السـلطات العُليـا في العاصمة بغداد.

هذا القلقُ سرى في رأسِ أمٍّ مُشرق أيضاً.

لقد شاهدتها عِطر وريم تُعلِن توجّساً عبرَ سحنةِ وجهِها التي انكمشَت فيـه الجبهـةُ وزمَّـت الشـفتان. يصـاحبهما ارتعـاشُ الأصابع، وفعلُ حركاتٍ تقربُ من التعثّر وهي تخطو.

وعنـدما تحـرَك السـائقُ، وردَّدَ بصـوتٍ مسـموع "أعنّـا علـى قضاءِ حوائجنا يا ربَ العالمين." هتفت معَ الجميع: "آمين.."

ولأنـه صَباحٌ جلّـي ومُبهـرٌ نثـرَ التفـاؤلُ رذاذَه علـى النّفـوس... فخلّفت السيارةُ الخضراء الداكنة السماوةَ وراءها.

انفتح أمامَ أنظارهنَّ، ومعهنَّ الرّكاب والعربة، المدُّ الرملي الأصفر الموشّى بالأخضر لون الزروع المتعالية قليلاً عن الارض.

راحت العربةُ تلتهم الطريقَ النَّدي.

ابتسـمت الشـمسُ ذهبيـةً باشـراقتِها البهيَّـة الرائعـةَ بينمـا عابثت الانسامُ الباردةُ المستحيلةُ ريحاً، احدثتها سـرعةُ العربة، الوجوهَ مُحدثةً لسعةَ بردٍ مُحبَّبة رغمَ أنَّ النوافذَ كانت مفتوحةً الى النصف.

بدت السماوةُ التي خلَّفنها وراءهنَّ مَدينةً بائسةً، متهالكةً.. لعلَّ بساتينَ النخيل الخضراء الكثيفة هي ما كان يُخفّف مِن بؤسِ منظرِها عن بُعد.

كـنَّ في الخانـة الخلفيـةِ وراءَ السـائقِ ببشـرتِه السَّـمراء ويشماغِه الرمادي الموشى بنقاطٍ حُمرٍ يطوّق رأسَه ويترك زلفيه يتأرجحـان علـى خدّيـه الأسمـرين؛ يَجلـس الى جنبـه بـدويان عجوزان بوجهين كـالليمونتين لم يَسـمعنَ لهما صوتاً لكنَّهما كانا يدخنان بشراهةٍ تبغاً مَحلياً رديئاً، ويسعلان بعمقٍ.. ولقد دفعت أمُّ مُشرق أجرةً زائدةً لاختيارِ هذا المكان داخلَ العربة. أما باقي الرّكاب واكثرهم من قاطني السلمان أو البدو الذين أهلٌ لهم ينتشرون في البراري الشاسعة مع شياهِهم ودوابهم الأخرى فاتَّخذوا الحوضَ الخلفي في الخارج، تحتَ المظلةِ الكتّانية ذات القواطع الحديديةِ الصدئة. اختيارُ المقاعدِ داخل العربة أو خارجها يتمُّ على قَدرِ دفعِهم للأجرةِ. كُنَّ لحسنِ حظهنَّ الراكبات الوحيدات الآتيات لمراجعةِ السُّجناءِ وإلا لتنافس مَن يَجيء للزيارة على المكان.

كانت الفيوضُ المائيةُ الغامرة للأرض بمساحةٍ مُلفتَةٍ، والعشبُ الناهضُ يانعاً، والتلالُ المترامية على مدِّ النَّظرِ تُعلن اخضرارَها أيضاً. ذلك الاخضرارُ الذي أظهرَ مَجاميعَ زرازير سود تطيرُ وتحطُّ على حافةِ غديرٍ هنا أو كثافةِ عُشبٍ لامعٍ هناك؛ وثمّةَ غزلان بنيّةٌ رأينها تقضمُ العشب وترفع بين لحظة وأخرى رؤوسُها الشهباء تطالعُ الطبيعةَ المحيطةَ بمشهدِ مَنظرِ أخّاذ.

قال السائق: أنظروا على يمينِكم وشمالِكم في الأرض القريبة.. شاهدوا الكمأ يشقُّ الرَّمل ويخرج. سنشهدُ خلالَ الاسابيع القادمةِ جموعَ المسترزقين على رحمةِ اللّه يجمعونَه ويحملونه إلى السماوة لبيعه بأغلى الاثمان.

همَّ بإدارةِ وجهِه اليهنَّ، ليخبرهنَّ:

"خُذنَ منه إلى سامراء.. ستجدنَ الكثيرَ في الارضِ القريبةِ من السجن.. استخرِجنه بأنفسكن اذا رغبتن، أو أعطينَ لبعض صبيةِ البلدة دراهمَ ليجمعوه لَكنَّ."

كانت القُدورُ المعدنيةُ الفضيّةُ التي جلبنها مَليئة بالبرياني وبالرزِّ الملوّن المُعطَّر بالزعفران واللحومِ الحَمراء المَكسوَّة شَحماً تشرَّب بلونِ الزعفران، وكروصات السجائر، مع أكياسِ التبغ مع دفاتر الاوراقِ الشَّفَّافة لعملِ اللُفافات اليدويةِ تحتَ مقاعدهنَّ (لقد اشترت أم مُشرق جميع الانواع لتوزيعِها على السّجناء، فالتدخينُ تَسليةٌ مُثلى لَمن هُم يفتقدون أعزَّاء بعيدين).

بين وقتٍ ووَقت تمدُّ يدَها للتأكّد مِن أنَّ القدورَ بوضعِها الصَّحيح.

ما اخبرهنَّ به السائق عَن الكمأ ووفرته جَعلهنَّ يعتقدنَ أنَّ ما جَلبنهُ مِن طَعامٍ لسجينهنَّ وللسجناء أقرانه سيكون فائضاً عن الحاجة، إذ سيجدنَهم شبعوا مِن هذا الثمر اللذيذِ والثمين.

لكنَّ هذا الاعتقاد سرعانَ ما انجلى لشعورِهن أنَّ مُشرق ومِن مَعه لا ينظرون إلى الطعامِ المُقدَّم لهم وسيلةً لإشباعِ بطونِهم جراء مُعاناةٍ من جوعٍ ومِن قِلَّةِ أكلٍ إنّما لشوقٍ عارمٍ لتناول أكلات صنعتها أمٌّ أو أختٌّ أو زوجة.. أكلاتٌ تعيدُهم إلى جَوِّ الأُسرةِ الحَميم، وطقوسِ التعالِق النفسي، وتوادٍّ جُبلوا عليه.

كان الوقت ثقيلاً يمرُّ وإنْ كانت الفيوضُ تترعُ نفوسهنَّ، والمدُّ الأخضر للعشبِ الناهض يغني، وصفرةُ ورودِ النَوّار والبابونج الذهبية تشعُّ فتبهرُ النظر.. إنَّ الطبيعةَ إذا ازدهت كثيراً ما تثير الشَّجن، وتعيدُ للقلبِ حَنيناً مَخزوناً بتكدّسٍ خُرافي في غُرفِ الذاكرة. ذلك الحنين الذي يُعيد تجميعَ وتصفيفَ قطعِ ساعاتِ السعادة التي تبعثرت، وانهمرَ عليها غبارُ الايام، وتراكم.. وها هي أم مُشرق يُثار شجنُ قلبها لما ترى من ازدهاءِ الطبيعة وعذوبتِها فتستعيدُ زحوفَ ذلك الطفل الملائكي الجَّميل وحبوهِ على أرضيةِ الحوش المبلطة بالطابوق المربَّع الزاهي؛ ومن ثم نهوضَه بتعثُّرٍ من أجلِ المَشي، وقد افعمَ قلبَ الأب بسعادةٍ مائيةٍ غامِرة. تستعيدُ سعادةَ شقيقتِها لاحتضانِ الصَّغير، داعيةً إيّاها جعله وليدَها لتقوم هي بتربيته، تَعويضاً لحرمانٍ فرضَه عليها القَدَر فتركَها تَحلم بإنجابِ طِفل تعيشُ لأجلِه. فتتأسّى لأسى الشَّقيقةِ وحزنِها، فتروحُ تردد: "مُشرّق أبنكِ مثلما هو ابني."

(١٠)

اللقاء

بعد انخفاضاتٍ ومفازاتٍ عديدة اجتازتها عربة الفورد وخلفتها وراءها تبدّى مدٌّ متعالٍ. اعلن السائق بصوتِه الخَشن: "الحمد للّه على سلامتكم."..

فهم البدويان الكلامَ فردَّ احدُهم: وسلامتك.. بارك اللّه فيك. كنتَ ماهراً."

فهمت الثلاثة أنَّ الرحلةَ على وشك الانتهاء والوصولَ غدا قريباً... ولقد حصلَ ما فهمنه وادركنه، إذ بوصول العربة إلى نهاية المدِّ المُرتفع اطلت على انخفاضٍ وسيع كأنه وادٍ عريض. وبانت مجموعةُ هياكلَ حجريةٍ بهيئةِ بيوتٍ صغيرة تتجمَّع على ارضٍ مستوية.

ونطقَ السائق موجِّهاً الكلام لهنَّ: هل ترينَ ذلك السّور البعيد.. إنه السّجن.

يبدو هيكلُ السجنِ كقلعةٍ رومانيةٍ بنيت بالحَجر المأخوذ من التلالِ الحجرية المتناثرة ومعه الطوب المُستخلص من ما يزيد على الثلاثة امتار حفراً، ذلك أنَّ سطح الارض بمجملِه رملي مخلوط بالطين، فلا يكون متماسكاً إنْ جَفَّ، ولا

يتكتل، بل سرعانَ ما يتفتت.. مُنظره في البعدِ يزرع الرَّهبةَ في نفوسِ مَن يشاهده، وتغمرُ قلبَه الوحشةٌ. إذ ينتصب على تلَّة بارزة فيبدو كسنامِ جَملٍ. لونُه الأصفرُ الرملي الشبيه بلونِ بطنِ أفعى يوحي بشعورِ أنَّه هيكلُ قبرٍ جَماعي هائل تنحشرُ في جوفِه جثثُ أناسٍ لم يذوقوا من الحياةِ سوى عسرتَها بينما الأولى أنْ يعيشوا البُناةُ العظماءُ لما قدموا، وما بنوا، وخدموا.

إنّه السجن... كرر السائق جملته القصيرة مُنتظراً مَن يُعلق.

كان الركابُ لائذينَ بالصمت.

أمّا أم مُشرق أو عطر فلم يردّا عليه لأنَّهما سبقَ ومررنَ في المكان.. سبقَ وشاهدنَ هذا المدَّ الجغرافي الذي لا يشي بالطمأنينة والسَّلام.. سبقَ وشاهدنَ عَن بُعدٍ ذلك السنامَ الحجري الهائل. وعلى القُرب، في الأرض المنسرحة أدناه كانت عددٌ من البيوتات الحجرية البسيطة لأناس يعيشون مُعظم ايامِ السَّنة في هَجيرٍ ساخن، وتلفح وجوهَهم رياحُ السمومِ اللاهبة..

انَّهما يعرفان المَكان.

فقط ريم تلقَّفت كلامَ السائق بارتياحٍ ايذاناً باختتامِ الرحلة التي أخذت ما يزيد على الثلاثِ ساعات.

هبطت السيارةُ على انسراح رملي يختلط بحصى، فالطريق لم يولَ اهتماماً عبر العهود، ولم يفكر أحدٌ من المسؤولين في المُدن البعيدة على جعلِه طريقاً مُعبداً بالأسفلت.. أرادوه مَتاهةً

لا يعـرفُ انعطافاتهـا وانحرافاتهـا إلا القَليـل مِمَّـن اعتـادوا الحَركـة، سـائقون أو شـرطةٌ هَجانّـة مِـن سَـكنة الشِّعاب مـع أهليهم البدو. وجعلوا من القلعةِ، السجن مثابةً للتيه والضياعِ والموتِ لو فكَّر سجينٌ بالهَرب وظنَّ أنْ سينجو.

لقد جرَّب عددٌ من السجناء - فرادى أو مجتمعين - الهَرَبَ فضاعوا في البراري والاخاديد العَصيّة، وكان مصيرُهم الموتَ عَطشاً أو تيهاً. فالصحراءُ متاهةٌ لا انتهاء لها.. برّيّة من خَلاء شسيع، ومَغارةٌ مفتوحةٌ على السَّماء. تفرِدُ الذراعين لِمن يفكِّر بالجنون أو تستهويه المُغامرة فيسقطُ في غيهبها المُر.

قطعَ السائقُ طريقاً مُتعرِّجاً ابعدته عن اللافتةِ الحديديةِ التي تَحمل عنوان "بلدة السلمان" المُنتصبة على اليمين، وراحَ يتفادى كثباناً رملية احدثتها رياحٌ كانت قبل هطولِ الامطار تَسفُّ ببطءٍ فغيَّرت المَسار. ولولا درايةُ الرجلِ بطبيعةِ الصحراء وحركةِ الرمال البطيئةِ الخادعة لاندفعت العربةُ وانغرزت عجلاتُها في كثيبٍ من الكثبان المنتشرة، واحتاجَ لمساعدةٍ من سيارة شرطة الهجّانةِ ذات المُحرِّك الضخم "الستة سلندر" القادرة هي فقط على سحبِ العربة من حضنِ الكَثيب.

شكرت أمُّ مُشرق الله لأنّه وقف إلى جانب الرّكاب وجعلَ السائقَ يخرجُ من دائرةِ الخطر.. وهمست، لعطر وريم اللتين أظهرتا خوفاً، بما قاله الرسولُ الكريم لأبي بَكر يوماً:" لا

تخفْ ولا تحزن، إنَّ اللّهَ معنا."

وكان اللّه مَعهن، إذ تلقفت العربة بدايةَ الشارع الرئيس الوحيد، وهرعَ بعضُ الصبيّة والصبيات بوجوهٍ سِمرٍ مُوحِلةٍ، ونحولٍ يعكسُ تأثيرَ الصحراءِ اللاهبة على الأجسامِ الصغيرةِ يطالعون العربةَ.

وإذ توقفت العربةُ لينزل الرَّجلان البدويان وباقي الركاب تجمَّعَ الصِّغار يحدِّقون بأمٍّ مُشرق ومَن مَعها، ويطالعون مُساعدَ السائق الذي نزلَ من الحُضن الخلفي للعربة واندفعَ ينزل كوماً من أغراضٍ ابتاعها الرَّجلان والركاب من المدينة. ثم يعودُ إلى مكانِه في مؤخرةِ العَربة، ويدعو السائق للتحرّك ومواصلةِ السَّير وصولاً إلى بابِ السجن.. تلكَ الباب العريضة العالية للقلعة الحَجرية التي تَتَّخِذ لونَ الرَّمل وشحوبَ الأرض وهي تنتصبُ على تلَّةٍ واسِعة.

عند الباب الموارَب على سعته توقَّفت العربة. فشاهدت النسوةُ الثلاث شرطيان من الهَجّانة يلبسان بدلةَ كاكية ويتلفعان بيشماغٍ، عليه عِقالٌ أسود غليظ.

هبط السائقُ من العربة وتحرَّك اليهما يُعلمُهما بمجيء أهلِ أحدِ السجناء للزيارة بينما انشغل بتنزيل القدور وما مع النسوة الثلاث من حاجيات.

لم يتفاجأ الشرطيان بما رأيا، وتحوَّل احدُهما ليُخبر مديرَ

السجن.. قليلاً وعادَ يرحب بهنَّ، ويشير إلى غرفةٍ حَجريةٍ واسعةٍ تتوزَّع فيها كراسيَ من جرّيد النَّخل. دعاهن للجلوس ريثما يتمُّ اخبارَ السَّجين الذي جئنَ لمواجهته.

ولم يُبدِ مديرُ السجنِ غَرابةً لوصولِ الزائرات، فلَه معرفةٌ بأم مُشرق. وقد شَهَدَ طيبَها ودماثةَ خلقِها وكرمِها في زيارتين سابقتين. لذا كان الترحابُ واسعاً، وهو الأعرفُ أنَّ ما جاءت به من طعامٍ ستكونُ له حصَّةٌ منه، لا سيما وهو يتذكَّر كيف استطعمَ طهيَ يدِها وذوقِها في الطبخ.

- اهلا بكِ، والحمد للّه على سلامتكم.
- واهلا بك.. كيف حالُ ولدِنا، والشبابِ مَعه؟
- بخير.. سيفرحون لقدومكنَّ، بالتأكيد.

والتفت يدعو شرطياً للذهابِ إلى ردهة التي تجمع مُشرق والمعتقلين ليخبره بالزيارةِ بينما دعا الزائرات للتهيؤِ لاستقبالِه.

ولم تمض ربع ساعة حسبنها طويلة حتى أطلَّ مُشرق مُبتَسِماً. يرتدي بنطلوناً رمادياً فاتحاً وقميصاً ابيض ما زال يحتفظ بنصاعته وحذاء جلدي مشبك.. هو الزي نفسه الذي سيق فيه معتقلاً من بيته.

كان قضى وقتاً ليتهندم، وليظهر لهنَّ بطلعةٍ لا يترجمن فيها ضعفه بل جَلَده.

همَّت أمه استقباله بزغردة تُعلن من خلالها فرحتها لعظمة

مقدرته على تحمل الفراق؛ لكنها تراجعت خشية امتعاض أو غضب مدير السجن واتخاذ اجراء عقابي يمنعها من اتمام الزيارة أو حجبها حتى.

قالت له: ما شاء الله. ستبقى مبعث فخري.

لم تعبر عن وجع انبثق في ميدان قلبها وراح يتشفى في دروبه لرؤية شحوب واصفرار يشوبان الوجه الذي عهدته متوردا يعجُّ بالألق والصفاء.. تكتمت على جزعٍ رفع راياته في حواري روحها المتألم لترجمة لمشاهدة شيءٍ من الهزال يَكتَسِح بدناً عرفته عفياً، متيناً، نظراً. أمالت بقوامها بحركة تنم عن مرسوم تقديم عطر وريم ليتبادل معهما التحيات والتعبير عن الاشتياق.

افردت عطر ذراعيها وضمته، وعانقته. واختطفت لحظات شدو تنمُّ عن سعادةٍ غامِرة فهمست في اذنه تُعلمه أنها في شهرها السابع من الحمل، وأنَّ الذي في بطنها عابثٌ كثيرُ الحركةِ فابتسم. وبدوره همس يعلمها: العابث الكثير الحركة يرجح ان يكون ذكراً... سنسميه فَجر.

سعدت لما فاه به، فرددت: أجمل اسم.. سيكون كما أردت.

واستدار إلى ريم كي يطبع قبلة على جبينها، ويسألها عن دراستها، ويستفهمها عن كتب قرأتها. كم عددها، وما رأت

فيها من أهمية.. من تذكر من أسماء المؤلفين، وما هو رأيها بهم كمبدعين خلاقين.

وكانت ريم في غاية الهناء لمشاهدتها اياه مبتسماً، ولم تنتبه كما انتبهت امها لشحوبه وتأثير الفراق عليه.. لم تقدر كم أكل الفراق الكثير من معنوياته.

وكان للقاء مع اقرانه السجناء نكهة الود وأريج الحميمية... رأين في الجميع رفقة تبعث على الدهشة، وغمرهن اعتقاد أنَّ النضال اكسير تقوية العزيمة وتمتين الشكيمة.

اكتشفنَ السجناء بوعيهم، وارتفاع مناسيب ثقافتهم يصنعون عالماً يتعاملون في اطاره بسلوك اجتماعي يتوافق وسعة الجغرافية المكانية مهما صغرت وتحددت.. وأوضح مُشرق ان السجناء بحكم وعيهم يخلقون حالةً من التكيف ويعتمدون موقفاً يجعلهم يشعرون أن العالم الذي هم فيه هو كل الوجود الكوني.. وما وراء جدران السجن ما هو الا هيولي لا يستدعي التفكير به.. وبهذا فهم يحيون يومهم كمجتمع متكامل. ولا يهمهم إن اطلق سراحهم أم استمروا سجناء؛ مع ثقتهم بصدق افكارهم وعظم نضالهم.

لا شكَّ أن قدوم الزائرين من الأهل والأقرباء يفعم ارواح السجناء بالسرور، ويترعهم بهناء جميل لتبادل التحيات، والتحدث بشوق خرافي يترك في نفوسهم أثراً معنوياً قوياً..

فالإنسان جُبِلَ على التواصل. وهو المخلوق الوحيد الذي تستحيل اللغة عنده مادة غذائية بطعم العسل؛ ترتوي بها بساتين الروح وتينع... لذلك كان مُشرق يكثر من كتابة المواضيع الغزيرة المحملة بأفكار انسانية متميزة حالما تنتهي الزيارة، ويعود الزائرون إلى سامراء مُحمَّلين بما كتب في الأيام السابقة لتحتفظ بها عطر في ملفٍّ يضمه جارور منضدته. وكان يدعوها همساً للاحتفاظ بها ونشرها يوماً إن حدث له مكروه في السجن.

يتفجر فضول عطر لقراءة ما كتب.. تحاول مطالعة العناوين، والاستهلالات.. تفرد الاوراق على كثرتها علّها تحظى بعبارة سريعة تنحفر في ذاكرتها، بيد أن فجر يدعوها إلى تأجيل ذلك لحين عودتها.. فهناك، في غرفتهما بإمكانها القراءة والاطلاع تفصيلاً.

تستجيب لدعوته على أمل العودة وسلامة الوصول إلى سامراء كي تقرأ ما كتب لتستشف من خلال الكتابة مزاجه، وما اذا كان يصرف الايام كما هي حين كان يقضيها وسط الاسرة وفي فضاء البيت المترع بالأمان؟.. أكان يكتب بالفكر النير، والذاكرة المتوهجة كما هو عهده أم تراها قيود الاعتقال تجنت بتكبيل قلمه الممتلىء بحبر الابداع فأسهمت بتعثر انطلاقته المعهودة؟.. هل العيش مع اقرانه

المثقفين والخلاقين صنع حالة من التواشج ما أغدق على نهر رؤاه أمواه الالفة العذبة بحيث سيكون العيش بعد السجن كالعيش ما قبله: لا ضيق، لا كدر، لا هموم؟

تراجعت الاسئلة بعمومها وتوارت عندما أغدق عليها محيّا فجر ابتسامةً، ودعاها إلى يقين ان سيطلق سراحهم عاجلاً أم آجلاً، لانهم لا جنايات صنعوا، ولا خطايا ارتكبوا؛ فقط اتهامات، والسلطات ذاتها تدرك أنها كاذبة وملفقة.

ولقد صرفت الزائرات ليلةً عند عائلة سبق واستضافت ام مُشرق ومن معها في المرة السابقة.. وقضين صباح اليوم التالي في مقابلة ثانية مع مُشرق والسجناء الذين رحبوا بهن.

وفي الواحدة ظهراً خلفن السجن والناحية وعدن بنفس السيارة التي جاءت بهن بالأمس.. عدن محملات بما انتج بعض السجناء من اعمال حياكة ومنمنمات كهدايا تعبر عن تواصلهم وتوادهم مع اهل لهم واقرباء وأصدقاء.

وفي اليوم التالي كان الثلاثة يتجهن إلى بغداد، فسامراء.

(١١)

اطلاق السراح.. العودة إلى سامراء

لم يمض شهران على آخر زيارة لهن، وفيما كن يستعدن للقيام بالزيارة القادمة طرقت في احدى المساء الباب فاندفعت ريم تفتحها.

ابتسامة مشرقة من رجل اربعيني يرتدي زي الشرطة ويلقي التحية.

جفلت ريم للمرأى، وكانت الخشية تتنامى على وجهها؛ يكشفها ترجرج العينين بالقلق، ما جعل الرجل يبادر بالكلام، ويردد على مسمعها: مجيئي خير لكم وعليكم.. لا تقلقي يا ابنتي. فأنا حامل بشارة.. أين امك؟

شيء من الاستقرار شرع يطفو كالغيمة البيضاء في سماء روحها.

وجدت نفسها تفوه: "إنّها هنا؛ ماذا أقول لها."

"قولي لكم بشارة خير أحملها."

ولم تمض غير ثواني على الكلام حتى شاهد أم مُشرق وراء البنت، وقد سمعت كما يبدو ما قال، فتساءلت بشهقة:

"أية بشارة!.. ليس لنا إلا فجر، ننتظر بشارته."

"والموضوع يتعلق بمُشرق، نعم.. لولا سريّة الأمر لقلت لك اطلقي هلهولة الفرح."

"حقاً!"

"خلال ثلاثة ايام ستجدونه يطرق الباب.. لقد صدرَ أمرٌ بإطلاق سراحه مع مجموعة من أصحابه."

"ماذا تقول !.. ثلاثة أيام؟!

"لا غير.. ليس لديهم ما يدينونهم به، ووجدوا احتجازهم بالسجن مضيعة لشبابهم".

"يعني، هل نذهب إلى نقرة السلمان لاستقباله والمجيء سوية؟"

"سينقلونهم إلى بغداد.. سيبيت هو ليلة، ثم يأتون به إلى سامراء.. يعني ستلتقونه هنا بعد ثلاثة ايام."

ووجدت أم مُشرق، بعد أن نادت على عطر وسمع الثلاثة الحوار، أن أواخر النهار اكتسى بالبهاء.

همست في اذن ريم كلاماً... لحظات وعادت بخمسة دنانير دفعتها إلى الرجل، قائلة:

"ثمن بعض من بشارتك."

ولم يجد الرجل احراجاً في تقبّلها. تناولها مع شعورٍ بأنَّه فعلَ أمراً خيراً سيجازى عليه عند رب السماء.

عجَّت في البيت رياح الأمل بحياة جديدة، وتعالت أهازيج

النفوس تتراقص على خفق انسام الحبور.

صارت شوارع سامراء تستقبل أمَّ مُشرق بعباءة تخفق كأنها راية المنتصرين في المعارك الظافرة فتسير معها على ايقاع سعادة مفردات البشارة التي تلقَّتها، والخبر المائي العذب الذي تسلمته من رجل كانت ابتسامته شهادة فرح رطَّب حماء قلب استعر لأشهر طوال كان فيها مُشرق نجماً ثاقباً خالته كثيراً شهاباً يحترق ويمر خاطفاً ليترك خيط خواءٍ وأسى ووجع لا محو له ولا انتهاء.

ولم تكن الأيام الثلاثة بقصيرةٍ رغم علامات الفرح الراقصة في العيون، وامطار السرور الهاطلة على بطاح القلوب.

تستعيد صورة ذلك الصبي الذي أحب تربية الحمام من يوم جلبت له عمته المتزوجة في قضاء "بلد " زوجاً من الحمام الفضي بمناقير صغيرة مستدقة ولكن بأجنحة عريضة تصطفق حين الطيران بإيقاع محبب زرع في فضاء روحه نشوة البهاء وأترع قلبه بنغم.. من يومها وهو يحب للناس الطيران في فضاء مفتوح؛ حافل بالأنسام ونقي. وكثيراً ما سألها وسط رحيل نظراته إلى السماء الطائرة لماذا لم يخلق الله للإنسان اجنحة كي يسافر إلى البعيد، البعيد ليرى ما يجري وراء الافق البعيد... وكانت في حمّى بهجتها للسؤال العميق المعنى ترد بما لا تعرف. فقط تقول: انها حكمة الرب.. خلق لكل

مخلوق صفات خاصة به.

إنَّ الحزنَ لَينجلي، والكمدَ لَيزول.. وإنَّ الروح لَتهنأ هناءً عسلاً... لا ثقل بعد انفراج الغمّة، والصباح المشرق بمجيء الغائب يُقبلُ طيِّباً مُعافى؛ وسيطول حاملاً جراب الهناء ليوزعه على النفوس الملتاعة، التي انتظرت طويلاً طويلا... لا شكوى، ولا نَدب، ولا دموع بعد اطلالته على الزقاق ونقر خشب الباب المفتقدِ لظهر اصابعه وهي تضرب بنغمٍ يسعد له سكنة البيت... حضورُ مُشرق يعني حضورَ الربيع؛ يعني انتهاءَ عواصفِ الألم وزوابع الهموم؛ يعني الليلَ بهيّاً يخطو على ايقاعِ نفوس تدخل حوارَ الحميميةِ والألفةِ والانسجام؛ يعني محوَ مفردةِ الأنين من قاموسِ الأيام القادمة؛ يعني لا عودةَ لتلكَ الترنيمة الحزينة القاهرة التي اعتادت أم مُشرق ترديدها بلا انقطاع وهي تذرف دموعاً صامتة حين تختلي مع نفسِها، قائلةً بلسانها الشعبي الأصيل:

سرى ضعن النودهم.. ما تونَّه

الخنسه من بعض ونّي.. ما تونَّه

جثيرين من اهلنا.. ماتونَّه

إنَّ أمَّ مُشرق لا تني تردد كلما تذكرت صبر الامهات وهنَّ يرين ابناءهنَّ يساقون إلى السجون أو يسمعن صرخاتهم وأوجاعهم تتسرب من نوافذ الزنزانات الضيقة وهم معلقون من

اياديهم وتنزف أفواههم وانوفهم دماً سيّالاً جراء القبضات الفولاذية للسجّانين المُعذِبين تضربهم بلا خشية، ولا رحمة.. نعم لا تني تردد: ما خُلقَ الرجالُ إلا للصعاب، ولا خُلِقَت النساءُ إلّا للشقاء.. فصبراً.. صبرا، أيتها النفس الشقية.. وما بعد الليل لابد للفجر أن يأتي.".

وها هو يجيء...

إنّها الآن تتحرك كالنحلة تتغنى بعودة الابن الذي أرادته مناراً بمصباح درُّي منير بالألاء اجتماعي تعلن تباهيها به، تخطط، وترسم، وتصمم كل ما يجعل فلذة الكبد يهنأ بعودته إلى الحضن الحاني يغذيه بالطمأنينة، والقلب الرؤوم ينثر في سماء حياته دعاءات الأمومة بالخير الدائم له.

عطر وهي تستعيد حواراتهما الوردية، وتنادي على سيرهما المتمهل جوار دجلة والضفة القريبة حيث تسترخي سلاحف على الرمل الدافىء تاركة اعماق اليم، حياتها الرتيبة، تقول:" لو كانت أمامي القماشة والألوان لصنعت لوحةً انطباعية، وأنده على يوجين بودان لأُعلِمه أنَني اعشقُ ضفافَ دجلةَ ورمالَها مثلما عشِقَ هو ضفافَ بحرِ المانش وغرقَ في رمالِ دفئها فنثرَ سحر ابداعه في عيون مَن طالعوا اعماله، فراحوا يَخطون على خطاه؛ فإذا بهم يشيدون أبهى مدرسةٍ في فنِّ الرسم والتصوير اسمها الانطباعية، وصار يطلق عليهم الانطباعيون."

تقضي الوقت - الممتد من وصول خبر اطلاق سراحه حتى لحظة مشاهدته بكامل كيانه - في الحلم الوردي بلقائه بعد فراقٍ قاهرٍ.

حلمت بعناقٍ طويلٍ يمحو أشهر جفاء القدر وقسوته، وحوار عمّا ستلد وكيف سيكبر المولود على رائحةِ الأبِ وحضن الأم مَعاً. تُمرِّرُ أصابعَها بين خصلاتِ شَعره الفَحمي وهو غافٍ على وسادةِ طلب الارتياح والاستغراق في نوم عميق افتقده طويلاً.. توشوشُ في أذنِه: سيأتينا مُشرق بما يعيد لنا ما افتقدناه من هَناء، وما اضعناه من شوق.

أمّا ريم فكتبت في كراس يومياتها: "إنّها الانهار تأتي بمياهٍ عذبةٍ، مارةً على الحقول والبساتينِ، تتلقّى من خضرتها الىناعة والوداعة والثمر الشهي. وتقول للغةِ: هلمي استحمي.. إنني كراسٌ مفتوح، فاكتبيني واقرأيني.. ولنغدق سويةً على البشر قصيدة السعي المقرون بالمستقبل الزاهي، والأمل الزاهر، والتفاؤل المنشود، والمستقبل للعيش بهناء؛ بلا ظلم ولا عذاب."

تأمل سعيدةً بحضور مَن كان هَدياً لها في ثقافتها وحَصاد ذهبِ المعرفة.. أخاً قالت له الأيام أنّه الكتابُ المفتوحُ على الشمس، في نهارٍ يَزخر بالألق.. ستحدّثه طويلاً عمّا قاست في فراقه، وفقدت بوصلةَ القراءات المُهمّة التي كانت تعتمدُ عليه

في ارشادِها اليها.

انهمكت الثلاثة في اعداد المعجنات وأصابع الحلوى التي ستوزع على المهنئين بعودة فجر.. انهمكن في اعداد ما يمكن طهيه من لحوم حمراء ودجاج وسمك وانواع المرق مع الرز البسمكي، والبرغل الأحمر الذي سيقدِّم لَلضيوف في الغداء والعشاء. ابتعن فواكه ومُكسَّرات حَسبنها ابجديةَ هناء للضيوف الذين سينغمرون في الحديث والحوار ويتبادلون الكلام كوسيلة لتبديد ما تراكم من كمد في قلب القادم من بين جدران الظلم والعسف... ومن جانبهن تبارت النسوة من الجيران للتعاون في اعداد الولائم، على بساطتها، وحسبنَ فجر ابناً مشتركاً، لهنَّ فاندفعنَ يشاركهنَّ الفرح، ويعلنَّ سعادةً لا تقل عن سعادةِ أهل البيت... إنَّ التَّوادَّ والتَّراحُمَ لَنَهرٌ انسانيٌّ دافقٌ. وهذا الحدث السعيد لن يمر دون الاستعداد له والاحتفال به.

لذلك عندما خرج مُشرق، ذلك الضحى البهي، من باب مركز شرطة المدينة، بعدما أتمَّ، أمام ضابط المركز توقيعه على ورقة بمثابة أمر إطلاق سراح وتصريح أنه خرج بلا ضرر جسدي ولا اعاقة، اندفعت النسوة جميعاً للسلام عليه واعلان سعادتهن بنيل حريته. ولم تكن أم مُشرق، وعطر، وريم المستقبلات الوحيدات.

ولإثبات حسن الجيرة واعلان عظم الترابط شاهد المطلقُ السراح أكثرَ مِن كفٍّ لجاراته تمتد إلى أكياس ورقية تخرج حلوى وعملات نقدية صغرى فتنثرها فوق رأسه، مسبوقةً بالهلاهل والأشعارَ الشعبية المُفاخِرةَ به، السعيدةَ بمشاهدتِه.

وكانت الأيام الثلاثة عقِبَ وجودِه في البيت واستقباله لمهنئيه تعجُّ بحضور النسوة اللاتي تبارينَ لنشر أريج الفرح والسرور في سماء المحتفيات بعودةِ رَجُلِ البيت قصد اشعارهنَّ بتواشجٍ حميم يعكس خلق الانسان وتعاطفه مع أخيه الانسان.

(١٢)

التشاؤم

لم يكن من المتشائمين، ولم يُر يوماً يتحدث عن تقهقر الحال.

التفاؤل كان ديدناً في حواراته وابداء رأيه.. التفاؤل، تلك المفردة التي كانت دوماً قرينة لتصوره عن مستقبل يلوح له عن بعد من الزمن، لم يكن يحدده. إنما كان موقناً أن سيتجسد انفتاحَ عينٍ، وانقشاعَ غُمّة. حتى أنَّ معظم أقرانه من الكتَّاب والمتحاورين والمريدين شرعوا ينظرون له على أنَّه متعلقٌ ومشدودٌ لهذه المفردة بينما التشاؤم أحرف متلازمة لطالما هشَمَها أمامَ انظارهم، داعيا إيّاهم إلى ازاحة غيومِها فهي لا تُشيرُ إلّا إلى الخواء والانهاك، ولا تعبر إلا عن الرماد والذواء.

أما الآن، وهو يسير على ايقاعِ الحرية التي استطعم عذوبتها بعد اعتقالٍ تعسفي، تراجعت نسبةُ التفاؤل لديه وحلَّت كثيرةً نسبةُ التشاؤم. فقد اكتشف أن الثقافةَ تراوح في مكانها، ومريدوها لا يزدادون، وبدا له أنَّ النور التي تبثه الكتب والمقالات، ومن ضمنها مقالاته، التي تعتمد الاحتكام إلى العقل وتوخّي انارة العقول لم يزد مقتنوها، ولا ظهر تأثيرها

على سلوك من طالعها، ما جعله يعتقد إن النخبة من النورانيين، بحكم قلة عددهم، لا قدرة لهم على التأثير.

لم يعُد ذلك الانسان الذي يطلق فراشات الأمل زاهية في أجواء حيرة الطبيعة.. لم يعد جامع الزهور الضاحكة بوجه المقبلين عليها. إنّه الآن أبجدية ذهول في عالم يضج بالصحو، وقاموس مفردات آيلة إلى الشعور بالغثيان.. اكتشف أنَّ اعتقاله ومَن مَعه لم يُفضِ إلى تراجع السلطات واجبارها على توفير هامشٍ من تعاطي الحرية للناس؛ لم يدفعها إلى الرضوخ لمطالب النُّخبة المثقفة من أصحاب الفكر في تحسين واقعِ حالِ الناسِ... ومن جانبها فإن الناس لم تتعاطف معهم كسجناء رأي، ولم تقف إلى جانبهم لتعاضدهم.. معاناتهم، وتضحياتهم، وصبرهم، ومن ثم اطلاق سراحهم جميعاً مرَّ كأي خبر عادي.

إنَّ اللامبالاة أدهى ألماً من آلام المُعتَقل، وأشد وطأة من أيامه القاسية.. إنَّ الهجير صيفاً والزمهرير شتاءً في صحراء مترامية، كما هي صحراء السماوة، لَيتراجع تأثيرهما حين يقارنهما مع حيادية الناس في نظرتهم لمعاناتهم في تلك الجغرافية النائية، والطبيعة الموحشة والسكون الذي يخيل اليهم في بعض اوقاته أنهم يعيشون في مجرَّةٍ منعزلة وسط هيولي لا انتهاء له.

إنَّ قلبه الآن يحب أن يبوح بما يملأ حجراته، بما يحتشد في ساحاته، بما يعج في فضائه.. فالبوح، يقول في سرّه، هو تلك السرابات المترجرجة التي كنتُ أراها عن بعد، في ذلك الهجير الصحراوي، وأنا من وراء سور السجن أبعث بنظري إلى البعيد.

يريد أن يقول: البوح هو تلك المقالات التي تتفاقم في رأسي وتتراكم قاضَّة مضجعي، تريد التحرر للانسكاب على الورق، ترسم أملاً في تغيير أمّة وصلتُ إلى قناعة أنها تحتاج إلى مُغيِّر، إلى مُخلِّص، إلى نبيٍّ جديد. فليس عدلاً بقاؤها متصمغةً في بقعة غدت جرداء لشد ما صرفت من قرون وهي ساكنة، خانعة، صاغرة بينما حولها غاباتٌ من أمم تعيش النماء، والبهاء، والألق.

صار يقارن نفسه واقرانه من المفكرين مع مفكّري وفلاسفة أوروبا. اولئك كانت الجموع تتلقف ما يطرحون من آراء، ويؤمنون بما يكتب اليهم وما يسمعون بينما هنا كل ما يعلنونه كأفكار يراد لها ان تغير واقع الحال فلم تلق تجاوباً، لم يلتفت إليها. لكأن ما يكتب لا يخصهم، وليس من عالمهم... إنَّهم اناس مشدودون إلى قاع ارتضوا العيش فيه، واستطابوا لأسى وآلام وأحزان صارت من عِداد ابجدية حياتهم.

إنَّ الهوَّةَ لواسِعةٌ، وإنَّ القرارَ لَعميقٌ.. ما من حزن أعتى من حزن يغمر الروح كما طوفان، ولا خذلان أشد من خذلانِ

جمعٍ لمَن اراد لهم تغيير الحال، وهتفَ بهم أن ينهضوا فما أصاخوا له سمعاً، ولا اعاروه بالاً.

لم تكن الدنيا واسعةً كما كانَ يعتَقد بل ضيقةً بما لم يَكن يظن.

فأدواتُ التغييرِ باتَت عاجزةً، مرتبكةً، وغيرَ قادرةٍ على التأثيرِ؛ لأنَّ تأثيرَ الرياحِ على حَجرٍ صلد، وأخرسٍ، وجلمود يؤولُ إلى العبث. إذ لا تَعريةٌ تصلُ الى قلبِ الجمر فتشتعلُ الاعماق، وتتفجر، وتثور، ولا انبثاق نار ولو بقدر بصيص.. إن الموات طبيعة جاهزة تعلن السكون الابدي.

تيهٌ يأخذُ المدى، ومثابةُ الطمأنينةِ لا أثر لها.

لا تأنٍّ إذاً بعد كل تواليات الضياع.

صار يشعر حين يجلس إلى منضدته التي كانت تستقبله، وترحب به وتهيء له راحة الجلوس ليكتب يعتريه شعور أنَّها تقابله بغرابة. ويخيل إليه أنَّها تتضور تململاً من ثقله، وتطالبه بالنهوض وتركها تنعم بالراحة بعيداً عن حرارة جسده التي تصليها وتضيِّق عليها انفاسها. إنَّ تساجل الأفكار السوداوية في الذات القلقة يخلق حالة من الضجر المُشيَّد على أرضية نفس هشَّة أربكتها اهتزازات الأحداث المتهافتة ذات الوقع الثقيل، وإنَّ اللغةَ بمفرداتها مهما كثرت وتناسلت تبقى عاجزة عن التعبير عمّا تعجُّ به النفس، مُستعيداً رؤية طه حسين كأحد

الذين تأثر بهم كثيراً، تلك التي تشير إلى " أنَّ الالفاظَ أقلُّ عدَداً وأضيقُ نطاقاً من العواطفِ التي لا تحصى."... لذا كان ينهض وقد انبثقت في حلقهِ مرارةِ الجَّزَع، وانتفضت في فضاءِ روحه غيوم الغثيان.

فينهض، يرتدي ملابسَه ويخرج... يقطعُ شوارعَ سامراء ودروبها، مأخوذاً برغبةِ التوجّه إلى مَلوية المتوكل التي جعلت هذا الخليفة العباسي رغم قسوته وجبروته وغلظة قلبه يشعر أنَّه بانٍ عظيم انجز ما يصنع خلوده، ويجعله شهيراً عبر حقب التاريخ لا يمكن لتهافتات الأعوام رميه في خانة النسيان، مقروناً بشهرة هذا البناء المعماري المميز. (لقد قرأ عن هذا الخليفة الكثير من القبح والقليل من الزهد.. يراه يمرُّ متثنياً، تحيطه حاشيته في مطالعة هيبته وانتظار أمراً يشير عليه أو يطلب رأياً يحتاج إلى توافقِ أو استدراك.. هذا وزيره الأول يتملقه بقول عظمته، وهذا قاضي قضاته يقول فيه من سماحةٍ وطيبٍ ورقةٍ ما ليس فيه أبداً، وأولئك خدامه في رهبةٍ يتأهبون لنأمة تخرج من بين شفتيه.. وهناك في باحة القصر وايواناته تنتظره قيانه ومحظياته بقلوب من وجل، وتمهيد لإرضاء.. فالعنفُ هو ما عُرِف به، والضغينة هي ما يتصف بها.)

الآن في تلك البقعة التي تعيده إلى ما قبل أحد عشر قرناً يقف ليدعو الهواءَ المُفعمَ بالسكينةِ، والمُطعَّم بأنفاس روحِ البُناةِ

والمعماريين أنْ يلامسَ وجهَه، أنْ يتقبَّلَ ولوجَ روحِه ليكونَ واحداً منهم.. لعلَّهم يستمعونَ لزمجرةِ شكواه، لصهيلِ حزنِه، لعرباتِ ضجرِه التي تكاد تتهشَّم من ثقلِ ما تحمل، وتَتَحمَّل.. يخبرهم أنَّ البشرية في هذه الرقعة من الجغرافية لمّا تزل تعيش تحت وطأة العَسَف؛ أسفل ثقلِ الصخرة المهيمنة التي لم تتزحزح رغم تعاقب الأزمنة؛ بعيداً عن منابت النور والضياء اللَألاء الذي تتمتع به رقع أخرى من جغرافية لا اختلاف عنها كما هو المفترض.

إنّه الآن يحتفظ بقدرٍ لا يُستهان به من مُسوَّدات يحتفظ بها جارورُ مِنضدتِه كمشاريعِ كُتبٍ لم ترَ النور.. ماذا تراه يفعل بها ! ما جدوى ابقائها حبيسةً، مُقيدةً بينما الأَولى النزول رافلةً في شوارع المدينة، تحلُّ ضيفةً في البيوت وجليسةً في المقاهي، وتتجسَّد مائسةً بخيلاءٍ على صفحاتِ الجرائد والمجلات والكتب كمادةٍ غذائيةٍ شهيةٍ لا تخلوا منها مائدة.

يرى الأيام في انتظار ما يقرره لتستحيل مادة زمنية تحكي مادة تدوينية يطَّلع عليها القراء؛ ويجدُ قرارَه يدخل الآن من بابِ القرارات المصيرية، وهو يعتقد أنَّ بادرةَ القرار أخَذَت لها مكاناً في رأسه.

عادةً ما تأتي القرارات المصيرية بغتةً، كومضةِ ضوء لغيمة محتدمة. لكنها لا تأتي من فراغ، ولا تتمخض من هواء. إنَّما

تنبثق بعد اختمار ذاتي كانت فيه الافكار تتصارع، والروح تحتدم؛ والصور تتوالى متداخلة، متشابكةً ، متصادمة وإن كانت تحت رماد يبدو ظاهرياً ساكناً.

وهذا ما جرى له، وما حصل.

خلال أيامٍ بدا للام والزوجة والاخت هادئاً صامتاً. عزينها أيامَ سكون وهدوء تأتي غب زمن كانت فيه حريتُهُ مَسلوبةً، وكَلمتُه مكبوتةً، وقلمهُ مكبَّلاً سجيناً، هو الذي كان يجاهر بضرورة أن يعيش الانسان حرّاً يرفل على ايقاع السعادة، ويعتلي صهوة الاخلاق السامية: هوية الرقي، ولافتة الانسانية الباهرة.. ولم يدرينَ أنه الوقت الذي يسوح في حواري الروح ليخرج بعده محمَّلاً برغبة صعود التل والنظر نظرة التثمين والتقييم لما مر، وما سيمر.. لم تسأل احداهنَّ نفسها كيف ستكون حياته، بمفرداتها وجملها، بإيقاعها وحركتها هل سيكون تعامله مع واقع ما بعد السجن بمثلِ ما كان قبله؟.. أثمَّةَ تغيير سيظهر واضحاً في قابلات الايام وتهافتاتها أم سيكون يومه عادياً كأيام مَن حوله مِن الناس؟

يتذكرن قولاً كثيراً ما ردَّدَه، واستحال تميمة لرأي أمِلَ في تحقيقه:" إنَّ الجَّمْالَ بِغيَتْي وَسَعيْي وَمَرامْي."

لقد شاهدنه يسير على وقع تحقيق مفهوم الجمال وتكريسه، مثلما كان في مقالاته اللاحقة، قبل اعتقاله،

يحث الناس فيها على صنع السعادة وجعلها مفردة يومية تسير بموازاة مفردة الاخلاق. فهاتان المفردتان هما مفتاح بناء النفس ودخول رياض الفوز بالمبتغى، وجعل التعاسة، والأسى، والألم مفردات لا تطرق ابواب الروح.

يرى نفسه من اتباع باروخ سبينوزا في صَلابتِه، وجَلَدِه، وثباتِه على رأي ادركه وآمن به فليس بمُحيدٍ عنه، لا مِن مُريدي ديكارت - الذي تأثر به سبينوزا يوماً كفيلسوف ثاقب الذهب، وحاد الذكاء - في طراوته وتزلفه، في تَقيَّته والقفز على أفكارِه بغيةَ ارضاءَ مَن يَخشى جبروته وردَّ فعله الذي قد يود إلى الاعدام.

لطالما واجه نَفسَه بقوله: "أنا سبينوزياً أيتُها النفسُ حتى وإن ناهضتِني تَجنباً للقسوة المتجحفلة على مرمى زمن.. وإذا كان سبينوزا ارتضى المرض يأتيه متسللاً ليسلب صحته ويصنعه عليلاً فيسرق الموت حياته بسهولةٍ ويسر فإنَّ رضائي سيتم على تصميمٍ هندستُ خارطته، وسأنفذه برغبة وبلا توجِّس.. يجب على المرء اختيار موته بوعيٍ واستعدادٍ لا أنْ ينتظرَ خلفَ حجابات الخوفِ والرعبِ والخذلان، وعندها يكون قد مات قبل أن ينشب الموت اضافره في عنق روحه ويتركها تصعد كالدخان الباهت إلى السماء".

لذلك كانت الأيام التالية يقضيها قريباً من الملويَّة، وقد

توصل إلى حقيقة عقم أيّةِ وسيلةٍ لإنهاء معاناة الشعور بفشل التجربة واستحالة تغيير مُجتمع جُبل على الخطأ مُرتضياً السير في دربِ الدِّعة، والتيه واللامبالاة.

تُبدي عِطر قلقاً عميقاً عليه، وتحدس بنظراتٍ يشوبُها التأسي على حال لم تتمناه يوماً يحصل له حتى في الكوابيس. فتروح ترجوه مراراً الانتباه لنفسه بعدما أظهرت عدم ارتياحها لسلوك بات يسلكه، ونوايا شعرت بهيمنتها على عقله.. تحاول تبديد ما يعتمل داخله بجعله يقضي وقتاً مع ولدهما مشرق. تحسب أنّ الصغير لابد أن يزيل بضحكاته وبراءته ولعبه شيئاً من غَمامات الكَدر.

كان يحاول طمأنتها بما ليس فيه من طمأنة. فقد صارت تراه يوماً بعد آخر يتدهور. يتيه في درب الذهول، ويغيب عنها وعن كل ما حوله وإن بدا حاضراً.

كفَّ عن الكتابة.. هجرَ القراءة.. طلَّقَ الكتبَ الحميمة التي تنتظره على الرفوف. ولم يعد يخرج الى المكتبات ويعود بما حملَ من فاكهةِ المعرفة.

في الخارج كان يتظاهر بالجَلدِ والكبرياء. يتعالى بسيمائه؛ أمّا الرجل الذي في داخله فيتألم وجعاً، ويتأوه.

طفقَ يبحث عن الفضاء الرحب قضاءً للوقت؛ مؤثِراً العُزلةَ، هارباً من كل ما يسمى زحاماً أو حركة بشرية يضمُّها سوق

أو شارع أو تجمعٍ لاحتفاليةٍ أو ندوةٍ أو حوار.

وفي الأيام التالية انهمك في متابعة الصحف فلا يتابع فيها غير حقل الوفيات والفجائع، باحثاً بينها عن الأسباب. ما لبث أنْ صارَ يدخل الغرفةَ ويروح ينهمك في انزال ما على الرفوف من كتب تتناول مَن غابَ من العلماءِ والأدباءِ والمفكرين وماتَ بطريقةٍ غامضةٍ أو بوسيلةٍ خطَّط لها ونفَّذَها بيقين.

صار في البيت غريباً مثلما صار غريباً في الشوارع والطرقات.

ما بين الغرق الأكيد، والانقاذ المستحيل هوَّةٌ من الضياع، أو غابةٌ من الفقد.

صار يخرج وحيداً ويعود وحيداً.

وفي يوم انتظر لحظات مغيب الشمس وذوائها وانسحابها كسيرة إلى مخدع الهمود. جلس إلى المنضدة.. تناولَ ورقةً بيضاء من مجموعة أوراق - كان كتب على بعضها يوماً موضوعاً يخص ماهية المجتمع ومآله ولم يكمله- فكتب وبخط عريض وكبير جداً عبارة (لا فائدة !.. لا، لا فائدة). ثم نهض فجعل عينيه تطوفان في المكان كأنه ارتضى لنفسه الدخول إلى دائرة التيه؛ والدخول إلى مثل هكذا دائرة يجدد احتمال عدم التجاوز، عدم القدرة على ايقاف النكوص، عدم القفز على الانهيار وصولاً إلى ضفة الأمان.

طـالعَ سـريرَ ابنـه فجـر الفـارغ وشـمَّ رائحتـه النائمـة علـى الوسادة الناعمة.. طالع أشياء غرفته وما احتوت: سـرير النـوم، منضـدة الكتابـة ومـا عليهـا، المكتبـة التي تشـكل ضلعاً مـن اضـلع الغرفـة ومـا علـى الرفـوف مـن كتـبٍ ومجلـدات، صـورة زواجهمـا المُعلقـة علـى الحـائط وهمـا بمواجهـة المصـور مُعيـداً اللحظة التي سبقت تفجّرَ فلاشِ ضوءِ الكـاميرا حـين دعاهمـا إلى الابتسام.

ثم توجَّه إلى الحوش داعياً عينيه لتتشبعا

تـرك البيـت وسـط خلـوه مـن أمّـه، ومـن عطـر وفجـر، فقـد دعاهمـا للخـروج إلى السـوق بغيـة التسـوق وشـراء متطلبـات الصغير.

ترك البيت متخذاً درباً برح فيه "سُرَّ مَن رأى"، وهو يتمتم في نفسه إنها "ساءَ مَن رأى".

يراها أطلالاً دوارسَ لم توظَّف بما يجعل المرء يَعتز بوجوده بَنّاءً، وفنّاناً، ومُعمِّراً، يفخر بكبرياء ارثي كبير.

كانـت الملويَّة شاخصـةً بارتفـاعٍ شـاهقٍ يبعـث علـى الـذهولِ ولكـن بانكسـارٍ عَليـل. يشـبه انكسـار فتـاة تعـج بالجمـال والسـحر الآسـر لكنهـا مهملـة مـن قبـل أهـل لم يقـدروا فتنتهـا وعظمتها.

خطـا إليهـا دانيـاً، مُجتـازاً السـور المتعـالي، وداخـلاً الفنـاء

الرحب الذي لم يعد يهمّه سعته.

تلقفت خطواته الدرجة الأولى من سلَّمِها ذي الطابوق المربع المفخور في افران صنع الياجور، وراح يصعد.

يلف ويدور..

يلف ويدور؛ حتى ادرك القمّة.

هناك نظر حواليه فلم يرَ غير أراضٍ جرداء يلفها الهمود.

لم يبصر غير الموات، وأناس من بعيد تدب كأنها ديدان لا تفكر إلا في كيف تعيش؛ تاركة أسئلة كبرى (كيف، ولماذا، وماذا بعد، وأليس من الأفضل والأولى، وألا يحق؟).. اسئلةٌ سألها أناسٌ آخرون عاشوا في اصقاع بعيدة من الأرض فتوصلوا إلى إجابات جوهرية، عميقة، مُشعَّة من داخل ذواتهم فبنوا، وانشأوا، وعمروا، وعاشوا الحضارة، وشيدوا الحرية، وصنعوا الأمان. وخططوا لمن سيأتي بعدهم من أجيال ليحذوا حذوهم.

تدور في ذهنه جملةٌ بمثابة حكمة أو يقين توصل اليه: في بلدان الشمال المفكرون هم الذين قادوا شعوبهم وجعلوها تتقبّل تنظيراتهم ورؤاهم. أما نحن فمفكرونا ساروا وما زالوا يسيرون منساقين مذعنين وراء طواطم شعوبهم لإرضائها فطبقوا ما تريد، وهُم في خشية وخوف ورعب من عواقب عدم الامتثال واظهار الطاعة؛ فكان المآل أن تطورت تلك البلدان

وازدهـرت وكـبرت في حـين تلكـأت شـعوبنا وتعثـرت وبقيـت تحرث في ثرى الظلام، فيما ظل المفكرون يجترون افكـارهم الانهزامية المهادِنة، ويصرفون حياتهم بمثل ما يصرفه العوام.

تمثلت على شاشة ذاكرته سقراط وهو يجرع السم تَخلُّصاً من أمةٍ لم تفهمه ونظرت له على انّه خارج سلطة الأعراف.. تمثل له همنغواي وهو يفجر رأسه بخرطوش بندقية الصيد نازعاً حياةً حسبها لا تستحق ان تعاش حتى وإن كان في قمة النجاح والشهرة.. شاهد فرجينيا وولف في عمق اليم بمعطف جيوبه تملأه الحجارة وقد وجدت في ما فعلت حسن الصنيع.. دنا منه آرثر كوستْلَر يعلمه بأنه اختار الموت الرحيم بعدما ملَّ من عمر يتناهشه السرطان المريع، فالموت مثل الحياة يمتلك الرحمة وإنْ كانَ مُرعباً في نظرِ الانسان.. وأخيراً ظهرَ له فنسنت كوخ وقد استقرت في صدره رصاصةٌ اطلقَها من مسدس يمسكه ارادها في صميم القلب، مردِّداً وهو يغمض عينيه الاغماضة النهائية "إنَّ الحزن ليدوم إلى الابد.".

لحظتها تهيأ للانضمام إلى جموع المنتحرين، مُردِّداً وفي عينيه أمّة لا أمل في انتشالها من جب الضياع: "إنَّ التغييرَ لمستحيل.. مستحيل.. مستحيل."

ثوانٍ منفلتة من عُمرِ الزمن ابعدت القدمين عن الياجور المربع الذي كانت القامة المنتصبة تستند عليه، وتركت

جَسداً يتسربل بقميص أبيض، تفككت ازراره وانفرد مثلَ بالونٍ ممزقٍ، يهوي إلى أرضٍ كانت مُتهيأةً لاستقبالهِ لتسجِّل قراراً اتُّخِذ، فنُفِّذ.

في اللحظات القليلة التي امتدت بين ترك القدمين ووصول الجسد المتهاوي الى الارض، والتي تشبه اللحظات الخاطفة الممتدة بين وميض برق في السماء ورعد تفجر، مرَّ قطار الذاكرة في محطات عديدة من حياته: محطة طفولته الباذخة بحبِّ أب سعد أيما سعادة بوجوده وهناء أم كانت مصباحا أنار له درباً طويلاً كي يجعل منه واثق الخطوة، رصين الفكر.. محطة كان الكتاب فيها صديقاً حميماً وقد تمثل المتنبي بصوته الشعري يردد نغمته الشعرية الشهيرة، "خيرُ صديقٍ في الزمانِ كتابُ" والقلم يسكب جذوته على ورق لهيف لروح يعجُّ بثراء معرفي كنهر دفيق.. محطة الزهو لجموع قراء يراهم يحتفون به ويعلنون تأثرهم بأفكاره وما يبغيه لأمة هي في حاجة لنور ثقافته.. محطة المصدات والمعيقات والتابوات والالغام والشراك المنصوبة له، وهو يتفاداها اعتماداً على خزين ثقة لا ينضب، وجبل صبر لا يهتز.. محطة العسف والجور والاضطهاد بالسجن، وبالتضاد منها التحمل والتجلد والرفقة والنضال مع اقران يشبهونه في الصلابة، ويقين سلوك الطري الصح.. محطة تبدد الآمال برؤية يشوبها الشك، ويلتصق بها

الفشل... وأخيراً محطة القرار الجريء الذي لا تراجع عنه.

وها هو، في هذه اللحظة الاخيرة من سِفر حياته، يقترب كشهابٍ لاهبٍ من أرض لطالما حلم بمشاهدتها تزهو بمن يرفل على اديمها وثراها من أجيال تدين لمفكريها بالدَّين الكبير.

(١٣)

التشاؤم مجدداً

ها هيَ الأعوامُ ترحلُ؛ والأحداثُ تغدو مِن عِداد الماضي، لكنَّ الذاكرةَ تبقى مُتَّقِدةً ومُتوهِجة. إنّها الكينونةُ التي لا يَقدِر الزمن بلحظاتِه وساعاتِه وأيامِه المتراكمةِ كالجبالِ على الانهيالِ عليها وطَمرِها وازالةِ مَعالم شيئياتها. وحتى لو حَدثَ هذا فإنّها كالبركانِ سينفجَّر يَوماً وترتفعُ حِمَمِه الى الفضاءِ لتقصَّ حكايةً انسانيةً دوِّنَت على صفحةٍ من صفحاتِ التاريخ، فكُتِبَ لها الخلود.

لقد ماتت أمُّ مُشرق كَظيمةً، طَعينةً، لوعى. خزِّنت جراحَها في دَفينِ روحِها، وقالت للقَدرِ لابدَّ للشمسِ أنْ تشرُق. فالديجورُ لَن يَدوم... كانت تأملُ مشاهدةَ المَرأة تعيش الحياةَ رافلةً على ايقاع احترامِ الرجل لوجودِها المُهم اجتماعياً، وحضورِها المؤثِّر في البناء السيكولوجي لعائلةٍ يُراد لها أنْ تَخطو متماسكةً ؛ وترى الطفولةَ تنعمُ بحنانٍ مُجتمعي، ومَسيرةٍ تربويةٍ تخلقُ انساناً واعياً يفهمُ دورَه ليصنعَ مُستقبلاً بَشرياً نموذجياً... لكنَّ ذلك لم يَحصل؛ لم يحصل أبداً، فقد

وجدت نفسَها تموت كما ماتت أمُّها، وجدَّتُها.

وماتت عِطر، الزوجةُ المثاليةُ، وهي تستعيدُ شريطاً مِن الأحداث والمواقف التي كان فيها مُشرق بَطلاً صارَ رمزاً للكبرياء، وطَوداً شامخاً تهاوت عندَ سَفحِه الأعاصيرُ الهوجاءُ والعواصفُ الصفراءُ، في وقتٍ تهاوت الرموزُ التي ادّعَت النزاهةَ والبراءةَ والتقى. كان كبيراً في نظرِها رُغمَ قرارِه الذي أدانه الكثيرون وعَدّوه تجاوزاً على الخَلق، واستهانةً من عبدٍ بربٍّ خلقَه في أحسنِ خلقةٍ فيما حسبُه البعضُ جُبناً لكنَّهم في قرارةِ نفوسِهم عدّوا فعلَه فعلَ اقدامٍ مصحوبٍ بشجاعةٍ لا تُضاهى.

تاركاً ولداً جَهِدَ يعشقُ الكتبَ ويسعى لقراءةِ ما يهوى.

يدخلُ على عمَّته ريم عديدَ المرَّاتِ ليسألَها عن عنوانِ كِتاب قرأهُ ويبغي موضوعَه؛ أو يُريها آخرَ بيده ويطلبُ رأيَها في أهميته.

لقد بَقيت ريم الكتابَ المَفتوحَ. يستطيع قراءتَها كلُّ مَن بحث عن التوِّر، والتثقف، الاسئلةِ والأجوبة، النّضالِ والصِّراعِ، التطلُّعِ إلى أمام والتنبّؤِ بما سيحصل.. كلُّ مَن هدِف لحيازةِ القناعةِ والحقيقةِ وأرادَ السَّيرِ مُنتصِباً واثقاً.. يَستطيعُ تَعلُّمُ أبجديتَه كلُّ مَن رغبَ العومَ في نهرِ النَّقاء، وتعلمَ العبورِ وصولاً إلى ضفةِ الكبرياء.

بَقيت ريم الذاكرةَ المُمتلئة ينهلُ منها مَن أرادَ مَعرفةَ

الكثيرِ مِن الخفايا التي لم تُنشَر في الصحفِ والمجلاتِ وكُتبِ السيرِ الذاتية.

وبَقيَت أيضاَ كلّما خرجَ فجر وبرحَ البيتِ انتابَها القلقُ، واستحالت مَخلوقةً خائفةً، لائبةً، لوعى.. لا تمسكُ وهَجَ الارتياحِ إلّا عندما يَطرقُ البابَ وتبصرُه سالماً؛ ذلك أنَّها صارت تتهجَّس مرورَ وجوهٍ غريبةٍ في الزقاق تُطالعُ بابَ البيت، وتَسمعَهم يسألون عن عنوان شخصٍ اسمه: فَجر مُشرق.

15تموز/ يوليو – 20 أيلول/ سبتمبر 2016

روايات صدرت للمؤلف

(١) سبت يا ثلاثاء ٢٠٠٧

(٢) فراسخ لآهات تنتظر٢٠١٠

(٣) أفراس الاعوام ٢٠١١

(٤) اسم العربة ٢٠١٣

(٥) تراجيديا مدينة ٢٠١٤

(٦) جاسم وجوليا ٢٠١٦

(٧) شارع باتا ٢٠١٧

(٨) السِّفرُ والأسفار ٢٠١٧

(٩) الليل في نعمائه ٢٠١٦

(١٠) الليل في نقائه ٢٠١٩

(١١) الليل في عليائه ٢٠١٩

□

Zaid Al-Shaheed

يَهتمُّ أبطالُ الشَّهيد كثيراً بالمنغّصات (العوائق بلغةِ الناقد الروسي بروب) ومعنى الاستسلام للقدر الغاشم الذي تَقول عنه شهرزاد هادمُ اللّذات ومُفرّقُ الجماعات. والواقعُ إنّه بين هذه الرباعية وشهرزاد أكثرُ من وَشيجةٍ وصلةِ قرابةٍ. فحكاياتُها تتطوّرُ في الليل، وهو التوقيتُ الذي اختارُه زيد الشهيد لرباعيته. وهذا واضحٌ من العنوان. ولكن لا تتوقّفُ الصِّلةُ عندَ العناوين، وإنّما هناك أيضاً علاقةٌ في المنطق أو البُنية.. كانت شهرزادُ تسلّي الملكَ الجائرَ بمجموعةٍ من القصص المتواليةِ، وتسمحُ لكلّ قصّةٍ أنْ تتفرّع فجأةً دونَ تمهيدٍ، واحياناً تحتلُّ القصّةُ الفرعيةُ مَساحةً أكبرَ من الأساسية. وقد اتّبعَ زيد الشهيد هذا الأسلوب دونَ تردّدٍ.

د.صالح الرزوق

سورية -دمشق
00963932472096
00963932002126
ammarkordia@yahoo.com